الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة 08 ماي 1945
قالمة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم التاريخ والآثار

# محاضرات في تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب في العصور الوسطى

الدكتور : كمال بن مارس

السنة الجامعية : 2019 / 2020

**الصراع على منطقة الشرق الأدنى حتى مجيء الصليبيين**

**تمهيد :**

احتل الرومان بلاد الشام في القرن الأخير قبل الميلاد ، و كان للعرب فيها دولتان : دولة تدمر في الشرق و دولة الأنباط في الشمال . فأما دولة تدمر فإن الرومان حينما فتحوا سوريا ، وأصبحوا مجاورين لها طمعوا بها ، فامتنعت عليهم أولا ، و تغلب عليها أخيرا القائد مرقص أنطونيوس سنة 36 ق.م ، ونالت بعدئذ حقوق مستعمرة رومانية .

و ابتداء من سنة 260 م خاضت تدمر حروبا ناجحة ضد الفرس أدت إلى تمكين ملكها أوذينة (أوديناثوس ) من بسط سلطانه على سوريا كلها فأعلنه الإمبراطور الروماني ملكا على الشرق سنة 265 م ، و بوفاة أوذينة خلفته زوجته زنوبيا التي تولت الوصاية على ابنها وهب اللات ( أثينودوروس ) ثم مافتئت أن أعلنت استقلالها عن الإمبراطورية و توسعت نحو مصر و الشام و العراق و آسيا الصغرى حتى أنقرة ، فخرج إليها الإمبراطور أورليان إلى حمص و هزمها و حملها أسيرة إلى روما سنة 273 م .

أما دولة الأنباط التي كان سلطانها يمتد من خليج العقبة إلى البحر الميت و تشمل شمال جزيرة العرب و سيناء و إقليم حوران (شرق دمشق ) إلى تخوم العراق شرقا إلى وادي القرى جنوبا على منتصف الطريق بين البحر الميت و الخليج الفارسي ، هاجمها الإمبراطور الروماني تراجان سنة 106 م و استولى عليها و أسماها المقاطعة العربية .

بعد ذلك لما رأى الرومان أنهم بحاجة إلى عملاء لصد هجمات البدو على المناطق المتحضرة ( نقصد المدن و القلاع الرومانية التي كانت منتشرة بالصحراء ) أقاموا دويلات عربية حاجزة على تخوم جزيرة العرب ، و حذا حذوهم الفرس ، فكان أن نشأت دولتا الغساسنة و اللخميين .

**أ – دولة الغساسنة**

حكموا بأمر الرومان المناطق الواقعة شرقي الأردن ، و كانت عاصمتهم بصرى ( إسكي شام ) في حوران ، أشهر ملوكهم الحارث بن جبلة الذي جعله الإمبراطور جستنيان سنة 526 م نائب ملك و بطريقا ، ثم منحه السلطة المطلقة على العرب بالشام شمالا منذ انتصاره على عرب الحيرة الموالين للفرس ، و قد قضى الروم على مملكة الغساسنة عندما قبضوا على المنذر الغساني و أولاده بتهمة الخيانة العظمى ، و دام حكم الغساسنة حوالي 4 قرون .

**ب – اللخيميون**

كانوا عمالا للفرس على تخوم العراق الخاضع لهؤلاء ، و كانت الحيرة بالنجف هي عاصمتهم ، و بصفتهم هذه كانت الحرب سجالا بينهم و بين الغساسنة إلى أن تمكن الأخيرين من الاستيلاء على الحيرة و تدميرها ، فاضطر الفرس بعدها إلى إقامة حكاما في المنطقة تابعية إلى التاج مباشرة .

الصراع بين الفرس و الروم على بلاد الشام :

دب الوهن في جسد الإمبراطورية الرومانية منذ نهاية القرن 2 م ، إلا أنه باستلام الإمبراطور قسطنطين[1] السلطة سنة ( 306 – 337 م ) عادت للإمبراطورية قوتها و وحدتها ، ثم عهد الإمبراطور جستنيان ( justinien ) [527 – 565 م ] هاجم الفرس بقيادة ملكهم كسرى أنو شروان[531 – 578 م ] ممتلكات الروم في سوريا ، فاحتلوا أنطاكية سنة 540 م و اقتادوا أهلها أسرى ، كما أنه على إثر مقتل الامبراطور موريس و استيلاء فوكاس على العرش سنة 602 م أعلن كسرى الثاني الحرب على الروم و تغلب عليهم في أوكسامون بين نصيبين و الرها سنة 603 م و وصلت غزواته حتى بحر مرمرة سنة 609 م ، و بعد إسقاط فوكاس و تولي هرقل الأول [2] عام 610 م ، تابع الفرس هجومهم و احتلوا كبادوكيا ( cappadoce) ثم قيصرية ( cesaria) سنة 612 م ، ثم اجتاحوا سوريا و هزموا الروم قرب أنطاكية و احتلوا دمشق عام 613م ثم استولوا على بيت المقدس التي كان حاكمها آنذاك زكريا .

و في سنة 619 م انقسم الجيش الفارسي إلى قسمين ، قسم استولى على مصر و الآخر اتجه شمالا و استولى على قليقية و الأناضول بآسيا الصغرى ، و حاصر الأسطول الفارسي القسطنطينية بحرا و في الوقت التي كانت فيه قبيلة الآفار ( AVAR )التترية القادمة من المجر تجتاح تراقيا متقدمة لمحاصرة القسطنطينية ، حينها أرسل هرقل لكسرى طالبا الصلح إلا أنه رفض ، و عاود حصاره للمدينة التي أبت الاستسلام في جوان 626 م فانسحب الفرس ، مما جعل هرقل ينزل إلى بلادهم شرقا عبر الزاب الكبير حتى وصل نينوى فقابل جيشا فارسيا دمره في شهر ديسمبر سنة 627 م ، و استولى على غنائم كثيرة و استرجع الصليب و كل بلاد الشام بما فيها بيت المقدس[3].

---

1- قسطنطين : هو مؤسس مدينة القسطنطينية على انقاض بلدة بيزنطة سنة 330 م ، التي جعلها عاصمة له ، كما انه هو صاحب مرسوم ميلان الصادر سنة 313 م و القاضي باعتبار المسيحية دينا كغيرها من الديانات إلا أنه لم يعترف بها كديانة رسمية للدولة إلا في عهد الإمبراطور تيودور الكبير ( 359 – 378 م ).

2- هرقل الأول : هو هرقل الذي بعث إليه الرسول صلى الله عليه و سلم يدعوه للإسلام ، و استلم كتابه بهذا الشأن حينما كان يزور القدس لإعادة الصليب الذي أخذه الفرس عند استيلائهم على بيت المقدس لكنيسة القيامة.

3- كانت من نتائج المعركة أن عزل الفرس ملكهم و قتله ابنه قباذ و تولى مكانه في 25 فيفري 628 م .

نازلت قبيلة بكر العربية سنة 610 م الفرس في معركة ذي قار على الضفة اليمنى لمنخفض الفرات قرب واسط و هزمتهم شر هزيمة و كانت تلك – ربما – بشارة لقدوم العرب المسلمين الفاتحين من جهة ، و تقويضا للنفوذ الفارسي في شمال شرق سوريا .

**الصراع الإسلامي – البيزنطي في منطقة بلاد الشام:**

تحتل العلاقات الإسلامية – البيزنطية مكانة هامة في التاريخ الإسلامي ، لأنها تمثل صورة الصراع الحربي الطويل عند الثغور و الذي استمر دون انقطاع طوال قرون ، و قد استدعى من الدولة الإسلامية أعمالا كثيرة لتأمين حدود الشام على تخومها من الشمال و الشمال الشرقي.

و في ظل هذه الإستراتيجية استدعى الموقف أن تؤمن الشام بفتح الجزيرة و بناء القلاع و الحصون و الثغور على التخوم ، في الوقت التي جسدت فيه الدولة البيزنطية كل قواها و إمكانياتها للاحتفاظ بالمناطق المحصنة ، غير أن المسلمين نجحوا في تحصين الشام و الجزيرة و ثبتوا تخومهم.

لقد راعى المسلمون منذ فتوحاتهم الأولى أن تحقق تخومهم لدولتهم تأمينا كافيا ، و من ذلك اتجهوا إلى فتح الجزيرة و أرمينية بعد أن تم لهم فتح الشام ، إذ زادت بذلك فرص الأمن لتخومهم و استفادت من مناعة جبال طوروس من ناحية ، و من طبيعة أرمينية الجبلية و موقعها الحاجز من جهة أخرى ، فقد أثبتت سير الحملات الإسلامية حقيقة ارتباط أجزاء هذه المناطق المتداخلة[1]، فكان من نتائج معركة اليرموك في رجب 13 هـ / أوت 634 م أن فتحت أبواب الشام للمسلمين ، و قد كانت الجزيرة و بلاد الشام البيزنطيين مركز الدفاع عن المنطقة الشرقية للمسلمين [2] و هكذا برزت للمسلمين قيمة الجزيرة الإستراتيجية في حماية تخوم دولتهم ، فلا غرو أن يذكر المقدسي[3] إقليم الجزيرة بأنه ثغر من ثغور المسلمين و معقل من معاقلهم فاتجهت أنظار المسلمين لفتح الموصل و ذلك لعاملين ، أولهما المميزات الإستراتيجية التي يكفلها هذا الفتح لتأمين الظهير الشامي من الشرق ، أما ثانيهما فيتمثل في سهولة هذا الفتح بالنسبة لقوة إسلامية مقيمة في الشام و مسيطرة على مصاب دجلة و الفرات ، و على هذه الظروف الجغرافية تتابعت فتوحات المسلمين ، ففتحوا الجزيرة بعد الشام ، إذ كان إقليم الجزيرة و شمال الشام وحدة يكمل بعضها البعض من حيث ارتباط حصونها و تعرضها لإغارات البيزنطيين [4] ، و كانت الإستراتيجية البيزنطية تعتمد على دعامتين أنطاكية في سورية ، و الرها في

[1]- توفيق سلطان ، الثغور و دورها العسكري و الحضاري ، مجلة آداب الرافدين العدد 11 ، سنة 1979 ، ص 9.

2- كانت معركة مرج دابق 15 هـ / 636 م انتصر فيها المسلمون فسار هرقل إلى الرها و أخذ عامله بسورية إلى حمص و دانت الشام لأبي عبيدة بعد فتحه حلب سنة 16 هـ / 638 م أخذ البيزنطيون يناوشون المسلمين من ظهيرهم عبر الجزيرة ، أنظر الطبري جـ 2 ، ص 57 ، 136 ، ابن الأثير الكامل ، جـ 2 ، ص 209.

3- المقدسي ، ص 136

[4]- انظر : الإصطخري ، ص 55 ، ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص 154 ، فتحي عثمان ، الحدود الإسلامية البيزنطية بين الامتداد الحضاري و الاحتكاك الحربي ، جـ 2 ، ص 260.

ما بين النهرين ، فقد ارتبطت أنطاكية بقليقية بطريق مجرى النهر الأسود ، فضلا عن إمكان التوغل منها إلى أرمينية عن طريق الهجرات الأرمينية نحو أنطاكية ، و علاوة على اتصالها بالشام عن طريق حلب [1] ، و في المقابل أدت الثغور الشامية و الجزرية دورها الحربي كأداة حجز و رقابة للدولة الإسلامية و ذلك لموقعها في منطقة التخوم الإسلامية البيزنطية .

و إذا كانت الروايات ترى بأن المسلمين قد وجهوا حملاتهم الأولى إلى الشام ، و أخرى ترى بأنها كانت للجزيرة ، فإننا نرى بأنهم دخلوا من ناحيتين حيث دخل خالد بن الوليد و عياض بن غنيم من الشام ، و دخل عمر بن مالك و عبد الله بن المعتم من الجزيرة في الوقت نفسه[2].

**العصر الأموي :**

كانت الحملات الإسلامية في منطقة الشام و الجزيرة متفرقة ، و لكل جبهة نشاطها ، إلا أنها كانت تتحد في جبهة واحدة عندما تتسع المعركة فتخرج عن النطاق المحلي ، و تصير معركة هامة في قلب آسيا الصغرى[3].

**العصر العباسي :**

اهتم الخلفاء العباسيين بأمر الثغور الجزرية و الشامية فولوا عليها أبناءهم و إخوتهم و أقرب المقربين إليهم [4]، و عملوا على تحصين المراكز على التخوم و الممرات الجبلية و أكثروا فيها الرجال و السلاح[5].

كانت معظم الهجمات على البيزنطيين من ثغر الشام ، أما ثغور الجزيرة فالغالب عليها الحراسة ، و كانت الثغور خالية من السكان عند فتح المسلمين لها ، إذ نقل البيزنطيون أهلها – لا سيما الأرمن – و سميت بالضواحي لقلة سكانها ، و عمرها المسلمون فأنزلوا بها عناصر قيسية و أسدية ، حيث استقدموهم و أسكنوهم ثغور الجزيرة بين قبائل مضر و ربيعة ، و نقلت جماعات من اهل الجزيرة ، و حمص و بعلبك و من المصريين و الكوفة و البصرة إلى نواحي أنطاكية التي أسكنها معاوية عناصر هندية من السند عرفت بالزط ، و سموهم المرابطة لملازمتهم ثغر العدو بالجهاد و هو الرباط[6].

لم يكن الإمبراطور البيزنطي ليو السادس ( 886 – 912 م / 273 – 299 هـ ) موفقا في حربه ضد المسلمين ، و كل ما فعله هو تحمل هجمات المسلمين في صقلية و الشرق ، كما لم تسمح الحرب التي قامت في

---

[1]- فتحي عثمان ، نفس المرجع جـ 2 ، ص 98.
[2]- الطبري ، جـ 2 ص 98 ، يؤكد بأن الحملة كانت مرة واحدة و هي أول حملة بقوله : «و لم يكونوا أدربوا قبله ، ثم رجعوا و هي أول مدربة كانت في الإسلام سنة 16 هـ / 638 م »
[3]- فتحي عثمان : المرجع السابق ، جـ 2 ، ص 98.
[4]- ولى أبو العباس السفاح أخاه أبا جعفر الجزيرة و الموصل و ثغور الشام ، و عين المأمون ابنه العباس على الثغور عام 212 هـ /817 م انظر:الطبري جـ 4، ص 280 .
[5]- توفيق سلطان ، المقال السابق ، ص 21.
[6]- فتحي عثمان : المرجع السابق ، جـ 2 ، ص 312.

أوروبا مع البلغار للجيوش البيزنطية أول الأمر بأن تقاتل على الجبهة الاسلامية فضلا عن أرمينية ، و لذلك حفلت الفترة ما بين ( 296 – 299 هـ / 909 – 912 م ) بحملات إسلامية موفقة برا و بحرا في ملطية و طرسوس ، و لذلك لم يلتزم البيزنطيون بالاتفاق البيزنطي – الأرميني لسنة 278 هـ / 893 م و القاضي بمساعدة الأرمن حالة الهجوم الإسلامي عليهم ، و شهدت هذه الفترة عملية تنظيم واسعة للثغور و التخوم البيزنطية ، و إنشاء أقسام جديدة بهدف ضمان الدفاع عن تخوم بيزنطة[1] .

و على أيام الإمبراطور قسطنطين ( 913 – 959 م / 301 – 348 هـ ) ركز اهتمامه على الجبهة الشرقية و بخاصة الثغور الشامية التي بمنطقة حلب [2]، و لعل السبب في ذلك لتخوفه الشديد من القوات الإسلامية هناك ، و ذلك لما قام به سيف الدولة الحمداني الذي أوجد وضعا خلق قلقا كبيرا لبيزنطة نتيجة ما أحدثه غلمانه المدربون على المغامرة و الإقبال كما يصفهم نقفور فوكاس [3]«إنه من واجبنا التخلي عن الاعتقاد بأن جيش سيف الدولة لم يكن إلا عصابات غير منظمة ،بل إن العرب كانوا يتخذون خططا في دقة متناهية ، و أعدوا لكل أمر عدته اللازمة ، و نظموا الخدمة اليومية بالاستطلاع ( بنظام الطلائع ) و الدوريات الصغيرة لكل كتيبة من الجيش » .

أيا كان الأمر فإنه نتج عن الحملات – في الفترات – المتعددة و المتتالية على المناطق الاسلامية في التخوم ما يشبه التعويق لعملية المد الاسلامي ، مما أثر على القوى الاسلامية في الثغور لدرجة أن بقيت مفتوحة أمام المطامع البيزنطية ، و اتخذت الحرب في هذه المرحلة أشكالا متعددة ، و لكنا في نفس الوقت كانت بأسلوب واحد لدى الفريقين المتحاربين ، إما بهجومات مباغتة تؤدي أحيانا إلى الدخول إلى ما وراء تخوم العدو ، أو بكمائن عند دروب و ممرات جبال طوروس ، و تنتهي كلها بتبادل الأسرى في نهاية الحرب[4]، إلا أنه بظهور القائد العسكري ليو الثالث غير شكل الحرب بإدخال أساليب جديدة مبنية على أساس الخدع العسكرية و الكمائن و التقهقر الظاهري[5] ، هذا الأسلوب القتالي ليس من عند ليو الثالث ، و إنما هو أسلوب عرف به الأتراك السلاجقة و العرب من قبلهم ، و قد عرف البيزنطيون الأسلوب القتالي التركي فقد عمل بعض الجنود الأتراك المرتزقة في الجيش البيزنطي ، كما أظهر ليو الثالث أنظمة جديدة لترتيب الجيش البيزنطي فأوجدت فيالق في كل مدينة من الثيما (Themes)[6] و مجموعة (Turmai) و فرقة (Banda)[7].

---

[1]- صابر محمد دياب : المسلمون و جهادهم ضد الروم ، ص 79 – 80.
[2]- المرجع السابق ، ص 105 ، فيليب حتى ، تاريخ سوريا و لبنان و فلسطين جـ 2 ، ص 195 .
[3] G.schlamberger,un Empereur Byzantin au X$^{eme}$ siecle (Nciphore Phocas), pp 226 – 227
[4] M.Canard, Histoire de la dynatie des Hamdanider, T1,p 716
[5]- د . ك . باليت ، أصول المعرفة العسكرية ، ص 59 ، أسد رستم ، الروم ، جـ 2 ، ص 39.
[6]- الثيما هي الولاية التي تدافع عنها الفرقة و كان قائد الفرقة هو حاكم الولاية .
[7] A.A Vasiliev,histoire del’ Empereur Byzantin,T1,p 298

**الدولة الحمدانية[1] و الصراع على منطقة الشرق الأدنى :**

بعد أن استقر الأمر للحمدانيين بالموصل سنة 324 هـ / 936 م وجه ناصر الدولة حملة على بلاد الشام سنة 332 هـ / 943 م إلا أنه فشل في السيطرة عليها لإبعاد الإخشيد له ن فعاد إلى الموصل تاركا أمر الشام لسيف الدولة[2] ، فسار سيف الدولة إلى حلب و تسلمها من صاحبها يأنس المؤنسي واليها من قبل الإخشيد ، و كان دخوله إليها في 8 ربيع الأول 333 هـ / نوفمبر 944 م إلا أن الحرب ظلت سجالا بين سيف الدولة و الإخشيد حتى عام 336 هـ / 947 م حيث استقرت ولايته على حلب بعد أن تنحى عنها لمرات ثلاث ، و بذلك انتقل الصراع الإسلامي – البيزنطي من جهة أرمينية إلى خط قتال جديد امتد من قليقية حتى ديار بكر ، و انطلاقا من مركزين أحدهما في الجزيرة ، حيث الموصل ، و الثاني في الشام حيث حلب.

و خلال هذه الفترة كانت حروب الحمدانيين حروبا وقائية بالدرجة الأولى تهدف لمنع بيزنطة من تهديد سلطة الحمدانيين في الموصل و حلب و ذلك في حالة ما إذا سيطروا على المناطق الأرمينية ، كما كان الهدف استرجاع ما آخذه البيزنطيون من الأراضي الإسلامية في الجزيرة.

بين سنتي ( 346 – 347 هـ / 957 – 958 م ) أصاب الجبهة الإسلامية شمالا الضعف و ذلك بسبب هزيمة ( نجا ) غلام سيف الدولة من قبل البيزنطيين في الحدث ، كما انهزم سيف الدولة أمام البيزنطيين أيضا في شعبان 347 هـ / نوفمبر 958 م ، و سقطت الموصل بأيدي البويهيين عندما تركها ناصر الدولة عند قدوم معز الدولة البويهي إليها[3] ، إلا أن البويهيين أرجعوا الموصل للحمدانيين بعد اتفاق سيف الدولة و معز الدولة على الصلح في سنجار في شهر محرم 348 هـ / مارس 958 م . و بعد الصلح مع البويهيين رأى سيف الدولة أن من واجبه أن يؤمن نفسه من ناحية الشمال الشرقي ، فوجه حملة ضد البيزنطيين عام 349 هـ / 960 م في خرشنة في المناطق المتاخمة لديار بكر ، إلا أنه إذا كانت البداية ناجحة فإن النهاية كانت مفجعة ، حيث لأغلق البيزنطيون درب مغارة الكحل ممر رجوع سيف الدولة و هزموه شر هزيمة و كانت تلك بداية الاحتلال البيزنطي لحلب فيما بعد [4] ، و يرى الأستاذ العريني [5] أن سبب خروج سيف الدولة إلى بلاد الروم هو لدفعهم على رفع الحصار على كريت الإسلامية ، إلا أننا نرى أن سيف الدولة اتجه إلى بلاد الجزيرة شمالا ليبعد خصمه ( البيزنطيين ) من حول قاعدة إمارته حلب ، ثم ليحمي الظهير الحلبي في الجزيرة خاصة إذا علمنا قد

---

[1]- الحمدانيون من قبيلة تغلب العربية، كان أول ظهور لهم في قلعة ماردين في أواخر القرن 3 هـ / 9 م عندما استولى عليها حمدان ، و هم من الشيعة الإثنا عشرية ، و تعتبر سنة 324 هـ / 936 م هي التاريخ الفعلي لقيام إمارة بني حمدان في الموصل بعد أن اعترف الراضي بالله الخليفة العباسي بولاية ناصر الدولة على الجزيرة و ديار مضر.

[2]- لما طلب سيف الدولة من أخيه ناصر الدولة ولاية يحكمها بعد تمرد غلمانه عليه ، في ميافارقين قال له :« الشام من أمامك و ما فيه أحد يمنعك» انظر ابن الأثير ، الكامل ، جـ 8 ، ص 396 – 418 .

[3]- أنظر ابن الاثير ، الكامل جـ 8 ص 523 ، ابن كثير ، البداية و النهاية جـ 1 ، ص 233 ، ابن العديم ، زبدة الحلب في تاريخ حلب ، جـ 1 ، ص 128 – 129 .

[4]- انظر ابن الأثير ، جـ 8 ، ص 531 – 532 ، ابن كثير ، البداية و النهاية ، جـ 11 ، ص 236.

[5]- الباز العريني ، الدولة البيزنطية ، ص 390.

نظموا في هذا الوقت هجوما على نواحي الرها و طرسوس و هي المناطق التي كان يريد سيف الدولة أن تبقى بمنأى عن البيزنطيين ، و أن غلامه ( نجا ) لم يحقق انتصارات تحد من تقدم الأرمن و البيزنطيين على الظهير الحلبي ، مستغلا بذلك انقسام القوات البيزنطية إلى جبهتين في كريت و في شمال الشام.

و في سنة 351 هـ شهر ذي القعدة / ديسمبر 962 م وجه البيزنطيون حملة على حلب و دخلوها و عاث نقفور فوكاس فسادا في المدينة ، و استنجد سيف الدولة بأخيه ناصر الدولة الذي لم يقدم له شيئا لانشغاله بمحاربة البويهيين في الجزيرة.

أما فترة ما بعد سيف الدولة ( 356 – 394 هـ / 967 – 1003 م ) فقد كانت مرحلة ضعف و تقهقر للدولة الحمدانية ، حيث فقدت أنطاكية و دخلها البيزنطيون بمساعدة الأرمن في ذي الحجة 358 هـ / أكتوبر 969 م [1] ، ثم حاصر البيزنطيون حلب عدة مرات ليستولوا عليها ثانية 359 هـ / 970 م ، إلا أن سعد الدولة استرجعها منهم في ربيع الآخر 367 هـ / 983 م ، إلا أنهم لم يفلحوا في الاستيلاء عليها ، و صالحهم سعيد الدولة على جزية يدفعها لهم سنويا شريطة تركهم حصار حلب و بقائه أميرا عليها [2].

**السلاجقة [3] و الصراع على الشرق الأدنى :**

كان لبلاد الأرمن أهمية إستراتيجية كبرى في علاقة الدولة البيزنطية بالإسلامية ، و كانت الدول الإسلامية المتعاقبة لا تفرط فيها حتى انتزعتها الأسرة المقدونية من أيديهم ، و مع ازدياد ارتياد الجند الإسلامي للمنطقة كان على الإمبراطورية البيزنطية زيادة الاهتمام بأمنها ، فوضعت نظاما للدفاع يقوم بتشييد المراكز العسكرية في مناطق التخوم و التي كانت عبارة عن قرى كبرى ، تستطيع أن تمد الدولة البيزنطية بالجنود حالة الحرب ، فعادت الأمور إلى نصابها و عم الأمن ، و أبقت بيزنطة على هذا النظام طيلة الصراع الإسلامي البيزنطي[4]، إلا أن المنطقة الأرمينية مرت بفترة ضعف في دفاعات حماتها البيزنطيين في منتصف القرن 5 هـ / 11 م و ذلك لمحاولة البيزنطيين بسط نفوذهم على المناطق الأرمينية لا سيما الشمالية منها ، أدى هذا العمل إلى ضعف نظام الإقطاع الحربي بالمنطقة و الذي كانت تعتمد عليه الإمبراطورية البيزنطية في دفاعاتها هن تخومها[5] ، هذا من جهة و من جهة أخرى كان لظهور الأتراك السلاجقة في المنطقة أن أعطوا العالم الإسلامي

[1]- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ 1، ص 168.
[2]- تولى سعيد الدولة إمارة حلب بعد موت أبيه سعد الدولة في ما بين سنتي (384 – 391 هـ / 991 – 1001 م ).
[3]- السلاجقة هم فخذ من القبائل التركية تنسب إلى جدها سلجوق ، دخلوا الإسلام مع نهاية القرن الرابع الهجري ، و كونوا دولتهم مع بداية القرن 5 هـ /11م .
[4]- حسين أمين ، تاريخ العراق في العصر السلجوقي ، ص 250 ، زبيدة عطا ، الترك في العصور الوسطى ، ص 44.
[5]- زبيدة عطا ، المرجع السابق ، ص 45.

قوة جديدة ، منذ أن دخل طغر لبك بغداد سنة 447 هـ / 1055 م و بذلك استأنفت عملية الغزو لأراضي الإمبراطورية البيزنطية ، التي كانت قد توقفت منذ قرنين تقريبا[1].

كما أعاد السلاجقة الوحدة السياسية للخلافة العباسية ، كانت قوتهم متفوقة نظاما وشكلا عن غيرها ، حيث استطاعوا في أول غزوة لأرمينية احتلال عشرين إقليما [2]. و بوفاة طغر لبك عام 455 هـ / 1063 م تولى ألب أرسلان السلطة و أقره الخليفة العباسي القائم بأمر الله على كل ما يفتحه من البلاد سواء كانت فاطمية أو بيزنطية[3].

و في ربيع الأول 456 هـ / 1063 م سار ألب أرسلان من الري إلى بلاد الروم فقصد آني و فتحها ، و أخذ من أهلها الجزية [4]، و هي تمثل الخط الدفاعي لبيزنطة و أرمينية[5] ، حيث أنه سيطر على هضبة أرمينية التي كانت بمثابة الدرع الواقي للدولة البيزنطية من الشرق لموقعها و صعوبة مسالكها[6].

بعد أن استقر الأمر للسلطان ألب أرسلان على العراق [7] منذ عام 456 هـ / 1063 م ، وجه حملته على حلب التي كانت بيد العُقيليين حيث كانت بيد قريش حتى توفي عام 453 هـ / 1061 م فتولى مكانه ابنه شرف الدولة مسلم الذي استطاع أن يوسع إمارته لتشمل ديار ربيعة و مضر ، كما اخذ مناطق كثيرة من البيزنطيين[8] .

و في تلك الأثناء التي خرج فيها ألب أرسلان التزمت ( الرها – أنطاكية ) بخطة الدفاع البيزنطي ، لمنع غارة السلاجقة على بلاد الروم في عام 458 هـ / 1065 م ، و في سنة 461 هـ / 1068 م استولى الإمبراطور البيزنطي « رومانوس ديوجين » على أرتاح القريبة من أنطاكية ، ثم نزل على منبج في الشمال الشرقي من حلب ، و قتل أهلها ، و هزم محمود بن صالح المرداسي[9]، و بذلك كفل الأمن للمواصلات بين الرها و أنطاكية بعد أن عقد الصلح في نهاية السنة بين حاكم أنطاكية الأرميني و صاحب حلب المرداسي ، و قد تكون هذه الهزيمة هي سبب طلب المرداسيين تسليم حلب لألب أرسلان فيما بعد ، غير أ ن ذلك ليس سببا كافيا ، إذ أن محمود لم يكن يعبأ بالخلافة الفاطمية و من ثم فقد تحول إلى الولاء للسلاجقة و العباسيين و التماسه الحماية من السلطان السلجوقي ألب أرسلان.

---

[1]. R.Dussaud,l'épopeé des croisades, p 3
[2]- فايز نجيب اسكندر ، أرمينية بين البيزنطيين و الأتراك السلاجقة ، ص 77.
[3]- الفارقي ، تاريخه ، ص 186 .
[4]- الحسيني ، أخبار الدولة السلجوقية ، ص 34- 40.
[5]- عبد القادر أحمد اليوسف ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص 141.
[6]- حسين محمد ربيع ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص 185.
[7]- كانت مناطق الموصل و سنجار و جزيرة ابن عمر قد سلمت لطغر لبك سن (449 هـ / 1057 م )
[8]- الحافظ الذهبي ، العبر ، جـ 3 ، ص 230.
[9]- المرداسيون : هاجروا من نجد نحو أطراف العراق و الشام في أوائل القرن 5 هـ / 11 م ثم تقدموا إلى حلب و أخذوها من العُقيليين في أواخر القرن ، و هم شيعة إثنا عشرية في الغالب.

و في سنة 462 هـ / 1070 م جاء رسول ناصر الدولة بن حمدان[1] لألب أرسلان يطلب منه المعاونة للقضاء على الحكم الفاطمي في مصر – و كان ذلك من الأهداف التي كان يسعى ألب أرسلان لتحقيقها بفتحه لبلاد غرب الجزيرة – فلما وصل الرسول إلى خراسان جهز السلطان جيشا عظيما و سار على طريق ديار بكر ، ثم نزل الرها سنة 463 هـ / 1071 م و لم يقدر عليها ، ثم سار إلى الشام بعد أن تلقى رسالة صاحب حلب المرداسي في أمر تسليم المدينة سنة 462 هـ / 1070 م [2]، و أقام الخطبة للخليفة العباسي القائم بأمر الله و السلطان السلجوقي ألب أرسلان في حلب اعتبارا من شهر شوال 463 هـ / 1071 م[3].

فراسل السلطان ألب أرسلان محمود بن صالح المرداسي – صاحب حلب – و أمره بحرب البيزنطيين فرفض نظرا للمعاهدة مع حاكم أنطاكية المشار إليها سابقا ، فسار ألب أرسلان إلى حلب و حاصرها و لم يُرد ليقاتلها لأنه كان يخشى إن فتحها بالقوة فيضعفها و يصبح سهلا على الروم أخذها ، ثم حاصرها ثانية فرجع إبقاءً لحرمتها ، ثم راسل بني كلاب و اسند لهم مهمة فتح حلب ، فخاف محمود من خروج مُلك الشام من يده فأرسل للسلطان ألب أرسلان و سلمه المدينة[4] و كان ألب أرسلان يريد النزول إلى مصر استجابة لدعوة ناصر الدولة غير أنه و هو بحلب سمع بخروج رومانوس ديوجين إلى نواحي أرمينية فعاد إلى الموصل و اتجه إلى مانزكرت تاركا حلب لابنه ملك شاه ، ثم أخذت الرها من قبل ملك شاه و سلمها لبوزان سنة 480 هـ / 1087 م . كما أخذ سليمان بن قتلمش أنطاكية سنة 477 هـ / 1084 م و سلمها لياغي سيان و أخذت دمشق و سلمت لطغتكين ، كما اخذت بيت المقدس من الفاطميين الذين استرجعوها ثانية ، كانت تلك أوضاع الشرق الأدنى قبيل الحملة الصليبية.

**معركة مانزكرت 463 هـ / 1071 م**

**تمهيد :**

بعد أن سلم محمود المرداسي حلب لألب أرسلان سنة 463 هـ / 1071 م [5] كان الأخير يريد النزول إلى مصر استجابة لدعوة ناصر الدولة الحمداني و استعداده للمساعدة ، غير أنه و هو بحلب سمع بخروج رومانوس ديوجين « ROMANUS DIOGENS» لمهاجمة أرمينية ، فعاد ألب أرسلان إلى الموصل ثم اتجه إلة

---

[1]- خرج ناصر الدولة من حلب بعد أن تمرد عليه غلمانه سنة 403 هـ / 1011 م فسار إلى مصر و بقى بها .

[2]- ابن العديم ، المصدر السابق ، جـ 2 ، 16 – 19.

- وسبب إقامة الخطبة هو أن الأمير المرداسي بحلب خاف قوة السلاجقة أنظر :ابن الأثير ، جـ 8 ، ص 108 ، الذهبي ، جـ 3 ، 250[3].

[4]- ابن العديم ، جـ 2 ، ص 22 – 23 .

[5]- أنظر أمر التسليم في ابن العديم ، زبدة الحلب ، جــ 2 ، ص 22 – 23 .

مانزكرت « Mantzikert»[1] و سبب ذلك هو أنه و هو بالموصل جاءه أناس من نواحي أخلاط و مانزكرت شمالا يخبرونه بأن الإمبراطور رومانوس جاء ثانية لضرب هذه المناطق[2] .

ترك السلطان ألب أرسلان ابنه ملك شاه على حلب مع فوج من عسكره ، وعبر الفرات فسمع بخروج الإمبراطور إلى نواحي أخلاط و مانزكرت فسار إليه و قصد ديار بكر و هناك سمع بعودة رومانوس فنزل ألب أرسلان إلى الموصل و أقبل عليه جماعة من أهل أخلاط و مانزكرت و أخبروه بخروج رومانوس إليهم ثانية فسار إليه[3].

**تعداد الجيش و فصائله:**

كان جيش رومانوس ديوجين من الروم و الروس و الجركس و الخزر و اللان و الأبخاز و الفرنج و الأرمن[4] ، أما جيش ألب أرسلان فيتكون أساسا من الأتراك السلاجقة في أربعة آلاف و لحق به عشرة آلاف كردي إضافة إلى العرب و الفرس و الغز [5] ، هذا عن الاجناس المكونة للجيشين ، أما عن عدد قوات الجانبين فقد اختلفت الآراء عند المؤرخين القدماء و المحدثين ، فإذا كان كل من ابن العديم الأصفهاني و الحسيني و ابن خلدون يعدون جيش ألب أرسلان بخمسة عشر ألف فارس ( 15000 ) و جيش رومانوس بستمائة ألف فارس[6]، أما كل من أومان ( C.oman) و دلبروك ( Hans Delbruck )[7] فيعدون جيش ألب أرسلان بأربعمائة ألف فارس ( 400.000) و جيش رومانوس بستين ألف (60.000).

و إذا كان كلا من أومان و دلبروك يرون كثرة جيش ألب أرسلان مقارنة بجيش رومانوس قد يكون ذلك صحيحا و لكن ليس بفارق أربعين ألف ؟

و إذا كانت حجتهم تقوم على تقسيم جيش رومانوس إلى جبهتين ، و أن فرقة التي سلكت طريقا غير الذي اتخذه لم تصله وقت المعركة فإن جيش ألب أرسلان قد ترك جزءا منه في حلب و بعث بجزء منه مع وزيره نظام الملك و زوجته إلى أصفهان ، فهكذا فمن الأرجح أن يكون عدد جيش ألب أرسلان خمسة عشر ألف

---

[1]- الفارقي ، تاريخه ، ص 190.

[2] C.Cahen ,OP CIT ,la campagne de Mantzikert ,Byzantion, T9 ,1934 pp 623 -624.

[3]- الحسيني ، أخبار الدولة السلجوقية ، ص 46 ، الفارقي ، المصدر السابق ، ص 186 ، 187 ، 189.

[4]- ابن خلدون ، جـ 3 ، ص 470 – 471 ، ابن العديم ، جـ 2 ، ص 16 – 17 ، ابن كثير ، جـ 12 ، ص 100 ، أبو الفدا ، المختصر ، جـ 4 ، ص 94 – 95 .

[5] C.Cahen ,OP CIT ,pp 629 -630

[6]- ابن خلدون ، جـ 1 ، ص 470 – 471 ، ابن العديم ، جـ 2 ، ص 23 ، الفارقي ، ص 189 ، البنداري ، دولة آل سلجوق ، ص 40 ، الحسيني ، ص 47 ، ابن القلانسي ، ص 99.

[7] - C.OMAN, History of the war in the middle age,vol 1, p219, Hans Delbruck,the art of war ,vol3,p198

فارس ( 15.000 ) ، أما جيش رومانوس فإنه قد يكون أقل مما أوردته الروايات الإسلامية ، إلا انه أقوى الجيوش التي جهزها رومانوس – دون شك – على حد تعبير زابوروف[1].

**ترتيب المعركة :**

اعتمد الأتراك السلاجقة على خفة فرسانهم و التراجع ثم المعاودة بالهجوم حالة وجود ثغرة في جيش العدو ، أما جيش رومانوس فكان يعتمد على قوة فرسانه الثقال المدرعين.

قسم ألب أرسلان جيشه إلى أربعة فرق ، كلا منها في كمين أحاطت بالبيزنطيين من كل جانب [2]، فرأى رومانوس ذلك فظن أن تفريق القوات بهذه الطريقة سيمكنه من الظفر بها و يبيدها ، و لكن تكتيك تلك الفرق جعله لم يتمكن منها دائما ، فكان فرسانه الثقال لا يستطيعون اللحاق بقواسي الفرسان السلاجقة الخفاف ، و في تلك إحدى المتابعات وجد رومانوس نفسه أمام جيش ألب أرسلان وجها لوجه[3]، و الكمين من خلفه و الفرسان خفاف الحركة من أمامه[4] ، فدخل رومانوس المعركة معتمدا على قوة فرسانه المدرعين في صد السلاجقة مهما بلغ عددهم و خفتهم[5]، و لكنه نسي بانهم خمسة عشر ألف فارس من الخيالة السلجوقية ذات الكفاءة العالية ، مسلحون تسليحا جيدا ، ممتازون بالفروسية و الرماية ، فضلا عن أنهم يدينون بالولاء و الإخلاص لقائدهم [6] .

اختار ألب أرسلان أماكن متعددة لبث الطلائع ، و وضع الكمائن في مناطق احتمل أن يستعملها رومانوس ، لذلك اتخذ الحيطة كي لا تهاجم قواته هجوما مفاجئا من قوات رومانوس ، فعسكر قرب منطقة مفتوحة كي لا يستطيع الفرسان البيزنطيون – في حالة التراجع – اللحاق به مهما يكن الأمر ، و لذلك فقد كانت ترتيبات السلطان ألب أرسلان تقضي باللف حول البيزنطيين حتى لا يترك لهم فرصة المبادئة بالقتال ، كما انه استعمل النبال البعيدة المدى – لخفتها – كي يحدث البلبلة في الرتل البيزنطي ، و من ثم فقد كان فرسان ألب أرسلان بعيدين عن مرمى النبال البيزنطية التي كانت ثقيلة ذات فعالية أكثر من السلجوقية إلا أن مداها أقصر ، إلا أن سهام ألب أرسلان كانت فعاليتها محدودة في الرتل البيزنطي و ذلك لقوة دروع الفرسان البيزنطيين إلا أنها كانت قادرة على عقر خيولهم مما ادى إلى الفوضى داخل القوات البيزنطية لفقد فرسانهم لخيولهم[7] .

أما رومانوس فلم يكن همه سوى سلامة المعسكر و الحفاظ على جيشه من القتل الذي أتعبته الحروب الكثيرة ، فأعطى أوامره بأن تجمع الأشياء الثمينة وسط المعسكر حتى يصرف إليها نظر الأتراك – حالة

---

[1]- زابوروف ، الصليبيون في الشرق ، ص 29.
[2]- أنظر ابن العديم ، جـ 2 ، ص 28 ، الأصفهاني ، ص 40 ، أومان ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص 197.
[3]- أومان ، نفس المرجع ، ص 198.
[4]- الحسيني ، ص 50 – 51 ، الأصفهاني ، ص 40 ، ابن العديم ، جـ 2 ، ص 28.
[5]- أسد رستم ، الروم ، جـ 1 ، ص 110 ، أومان ، المرجع السابق ، ص 198.
[6]- عبد الغني محمود عبد العاطي ، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية ، ص 65.
[7] C.Oman ,the art of war in the middle age ,pp 35 - 36

سيطرتهم على المعسكر – و يتركوا الجيش لحال سبيله ، إلا أن هذه الخطة فشلت لأن المرتزقة في الجيش البيزنطي سرقوا هذه الأشياء و هربوا مما سيزيد من خطر السلاجقة بالمعسكر و أمطروه بسهامهم من كل ناحية و بقوة لدرجة لم يستطع البيزنطيون مقاومتها[1] ، و كان أمام هذا الوضع أن يحترس رومانوس جيدا من الكمائن و المفاجآت ، بحيث لا يواصل القتال دون تغطية جناحي الجيش و مؤخرته باستعمال المشاة إلى أقصى حد ، آخذا بعين الاعتبار بأن لا يقسم الجيش أو يفترق ، إلا أنه انتهك تلك المبادئ ، فناوش أولا مع العدو في قلة فهزمه بسبب إهمال خالص ، عندما استكشفت مجموعة من الفرسان السلاجقة معسكر الإمبراطور ، فراحت تُهاجم بعنف من قبل قائد طائش ( Bailacuis ) فضاع على مرآى من سيده حيث وقع في كمين فكان الموت أو الأسر من نصيبه ، فأرسلت مجموعة ممن كانوا مع رومانوس لملاقاتهم ، لكنهم لم يجدوا غير جموع القتلى فتراجعوا إلى المعسكر [2].

و بأسلوبهم المعتاد لم يحاول الأتراك الاعتداء أو تنظيم أي هجوم على جند الإمبراطور فحام جمع من فرسانهم الرماة حول المكان و أخذوا يمطرون نقاط متنوعة من الصف ، فأخذ الفرسان البيزنطيون يخلون المعسكر بقدر المستطاع ، و لكنهم وقعوا في مناوشات مع أعداد تفوقهم ، مما جعلهم يقاسون أثناء الرمي بالسهام ، و ضعف كثير من الخيل فازداد قلق كل من الإمبراطور و جنده فكانت تخطيطاتهم لمواصلة القتال عشوائية[3] .

و أمام هذا الوضع أعطى رومانوس الأمر بالهجوم إلا أن السلاجقة لم يعطوه الفرصة في القتال فتراجعوا بسرعة ، فطاردهم رومانوس و دامت المطاردة حتى المساء دون تلاحم ، و حينما أعطى الإمبراطور أوامره لقواته بالتراجع و العودة إلى المعسكر ، كانت الفرصة ملائمة للهجوم السلجوقي حيث أن الأمر بالتراجع لم ينفذ بنفس الدقة من كل فرقة من فرق الجيش ، ففرق الأجنحة تلقته متأخرا مما أدى إلى ظهور ثغرات بين مختلف الفرق فبادر السلاجقة – وفقا لعادتهم القتالية – في اللف من جديد عندما بدأ الجيش البيزنطي في الانسحاب و شددوا على الرتل إلى درجة جعلت رومانوس يعطي أمرا بالهجوم ثانية ، نفذته قوات المقدمة بينما رفضه القائد أندرومينوس كوكاس ( Androminus cocas) في المؤخرة و خرج من المعركة بسرعة نحو المعسكر[4] .

**أسباب الهزيمة :**

---

[1] Marguerite Mathien,une source Négligeé de la Bataille de Mantzikert les Gesta Roberti Wiscardi de guillaume D'apulie Byzantion,T20,pp 91-92

[2] - كانت ميمنة رومانوس مشكلة من فرسان الثيمات الشرقية كبادوقيا و أرمينيا أما الميسرة فمن الفرق المساندة و المرتزقة و كان هو في القلب مع حراسه و فوج من فرسان العاصمة ، أما المؤخرة فكانت تضم الفرسان المرتزقة لا سيما الجرمان و النورمان و مجندي نبلاء التخوم الشرقية C.OMAN, History of the war in the middle age,vol 1, p 219

[3] C.OMAN, History of the war in the middle age,vol 1, p 220

[4] IBID , vol 1 , pp 220 – 221.

يرجع ذلك إلى تقسيم جيش رومانوس إلى جبهتين و عدم الهجوم به مجتمعا ، و عدم السماح له بالراحة قبل القتال ، و انفصال الأتراك و النورمانديين عنه ، ثم أنه ترك المؤخرة مفتوحة بعد خروج ( Androminus cocas) ، هذا ما رآه كثير من المؤرخين 1، إلا أننا نرى أن هذه ليست الأسباب الكافية للهزيمة و نرجعها لعدم التزام رومانوس بمبادئ التكتيك البيزنطي المعتمد على خطة الإمبراطور ليو السادس و القاضية بعدم الهجوم و الحفاظ على تغطية الجناحين و المؤخرة و عدم تقسيم الجيش ، إلا أن رومانوس هاجم ثانية دون أخذ الحذر.

**النتائج :**

كانت آسيا الصغرى مجهزة قبل مانزكرت بــ 120 ألف رجل ، و بعدها لم تعد قادرة على مجابهة مجموعة من 10 آلاف ، لذلك أصبح أسلوب الدفاع البيزنطي ( الثيمات Themes) غير قادر على مواجهة أي خطر ممكن من قبل السلاجقة [2].

و تعتبر هزيمة البيزنطيين في مانزكرت نقطة تحول في التاريخ الإسلامي البيزنطي ، فلأول مرة يقع الإمبراطور نفسه أسيرا في أيدي المسلمين ، فهي لا تقل أهمية عن اليرموك و نتائجها ، فإذا كانت هذه الأخيرة قررت مصير بلاد الشام ، فإن الأولى قد قررت مصير آسيا الصغرى التي نجح الأتراك السلاجقة في فتحها و توغلوا فيها ، و كانت بذلك لبنة اجتثت من بناء الدولة البيزنطية فمهدت لسقوطها ، فعندما فقدت الإمبراطورية ولاياتها الغنية في آسيا الصغرى ، أصبحت القسطنطينية رأس حُرِم من الجسد الذي يسنده.

و بذلك غدت آسيا الصغرى مكشوفة أمام السلاجقة ، و هكذا بضربة واحدة دفعت الحدود التقليدية التي طالما فصلت بين الإسلام و المسيحية 400 ميل إلى الغرب ، و لأول مرة استطاع السلاجقة أن يحرزوا مكانا ثابتا في تلك البقاع[3] ، و منذ ذلك الحين فقد الرؤساء و الجنود شجاعتهم و لم يحرزوا نصرا على الإطلاق ، فقد تفشى الغدر و الحقد بين زعماء البلاد ، و ساد الظلم بعد أن داسوا بأقدامهم العدالة ، و لم يكن همهم إلا تدمير البلاد بدلا من المساعدة على نشر السلام في ربوعها [4] ، و صارت بيزنطة تتعرض بمزيد من الشدة للتقسيم إلى ممتلكات إقطاعية شبه مستقلة في الميدان السياسي ، و منذ ذلك الحين بدأت قوة الإمبراطورية تتوقف على الفصائل العسكرية التابعة للإقطاعيين ، بل إن الهزيمة كانت قبل كل شيء ثمرة الإقتتال بين الإقطاعيين فإن بعضهم قد - خان أندرومينوس ( Androminus cocas ) – شريطة أن يحتفظ و يكثر من امتيازاته [5].

---

[1]- فايز نجيب اسكندر ، أرمينية بين البيزنطيين و الأتراك السلاجقة ، ص 112 ، عبد القادر أحمد اليوسف ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص 144 ، حسين محمد ربيع ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص 189.

[2] Hans Delbruck,op cit,P 198

[3]- أحمد رمضان ، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية ، ص 49 – 50 .

[4] - فايز نجيب اسكندر ، المرجع السابق ، ص 115.

[5] - زابوروف ، المرجع السابق ، ص 30 .

كما و أن من نتائج مانزكرت أن قضى السلاجقة على التحالف – البيزنطي الفاطمي – و اضطرت بيزنطة إلى مصالحتهم ، أما أرمينية فقد زالت منها الإدارة البيزنطية بعد أن هجرها سكانها و خضعت مدنها للسلاجقة [1] ، كما انهار نظام الدفاع البيزنطي الذي تولاه أمراء التخوم ، و بذلك تعرض نظام الثغور لضربة قاسية لا سيما و أن بيزنطة لجأت بعد المعركة إلى إنزال حاميات من الجند المرتزقة في أرمينية و الرها ، و لم تحاول الاستعانة بالسكان الأصليين [2].

كما و أنه باستيلاء السلاجقة على أرمينية فقد البيزنطيون موردا بشريا هاما لجيشهم من الأرمن الذين كونوا فرقا أساسية في الجيش[3] ، و أصبحوا يسعون للاتفاق مع السلاجقة ، و صار الطريق مفتوحا أمام السلاجقة فلم تكن هناك قوة قادرة على إيقافهم ، و بذلك أصبحوا يشكلون خطرا على المسيحية ، حيث ثبت و أن بيزنطة لم تعد قادرة على حماية أوروبا من الغزو الإسلامي و لا حتى حماية نفسها ، و لذا كان صدى هذا الخطر يتطلب تدخل الكاثوليك المسلح ، و هكذا بدأت صفحة جديدة في الصراع الإسلامي – البيزنطي فيما يعرف بالحروب الصليبية[4].

و السؤال الذي يطرح نفسه علينا الآن هل فعلا أن مانزكرت هي سبب حملة الغرب على العالم الإسلامي ؟

للإجابة على هذا السؤال لابد من معرفة شيئين اثنين أولها : خطاب أوربان الثاني الداعي للحملة على الشرق ، و ثانيهما : أوضاع بيزنطة في تلك الفترة أي في سنة 1095 م [5].

**أوضاع بيزنطة قبل خطاب البابا أوربان الثاني :**

في الفترة ما بين 1025 – 1081 م ( من موت الإمبراطور باسيل الثاني إلى اعتلاء ألكسوس كومنين الحكم ) شهدت بيزنطة تعاقب ثلاثة عشر ( 13 ) إمبراطورا من بينهم امرأتان كان معظمهم غير قادر على مواجهة الظروف الصعبة منها المنازعات الداخلية[6] ، كما أن الجيش كان مؤلفا من المرتزقة الروس و الأتراك و الإنجليز و اللان و النورمان و البشناق و البلغار و غيرهم و لم يكن هذا مما يمكن أن يكون الجيش قويا ، كما انهار الاقتصاد الكلي ، و أصبحت الخزانة خاوية لدرجة أن « أبوابها لم تكن تغلق » على حد تعبير آنا

---

[1] - زبيدة عطا ، المرجع السابق ، ص 53.
[2] G.Orstrogorsky,Histoire de l'eta Byzantine, p 367, H.Delbruck,OP CIT vol3, p 198
[3] - زبيدة عطا ، المرجع السابق ، ص 53.
[4]- تعهد رومانوس بعد إطلاق سراحه بإطلاق جميع الأسرى المسلمين و إعادة المدن التي كانت للمسلمين قبل مانزكرت و أخذها منهم البيزنطيون ، إلا أنه ما إن وصل إلى القسطنطينية حتى اتهم بالخيانة و قتل و ضرب اتفاقه عرض الحائط ، كما توفي السلطان ألب أرسلان سنة 465 هـ / 1072 م و قامت من بعده كنتيجة لمانزكرت دولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى فيما بين 467 – 702 هـ / 1074 – 1302 م .
[5]- للاطلاع على خطاب البابا أوربان الثاني في كليرمون ، أنظر محمد ماهر حمادة ، وثائق الحروب الصليبية ، ص 99 – 101 .
[6]- خلع كثيرا من الأباطرة منهم مثلا : رومانوس ( 1068 – 1071 م ) و الامبراطور ميخائيل السابع ( 1071 – 1078 م ).

كومنين ( Anna Commenun ) ، و كانت الحروب الداخلية تمزق الإمبراطورية عقب مانزكرت و انتهت بصعود ألكسوس كومنين ( 1081 – 1118 م )[1].

عندما مات الإمبراطور باسيل الثاني سنة 1025 م كان موته بمثابة الخاتمة لفترة باهرة متألقة في التاريخ البيزنطي ، حيث ترك دولة امتدت إلى مدى لم تصله حتى حملات هرقل على الفرس في القرن 7 م ، و ظلت الإمبراطورية في مستوى جيد خلال السنوات العشر التي تلت باسيل الثاني حيث استطاعت صد هجمات المسلمين و تهديداتهم في الشرق ، و السلاف في البلقان و البلغار في تسالونيكا و بلاد الإغريق و هجمات الروس سنة 1043 م على العاصمة ، و في إيطاليا كان موقف البيزنطيين جيدا على الرغم من فشلهم ضد مسلمي صقلية سنة 1038 م،أما عندما اعتلى ألكسوس كومنين سدة الحكم أمام الأوضاع المتردية (حرب مع السلاجقة و أخرى داخلية ) فكان عليه أن :

1- يوقف خطر النورمان في إيطاليا و الذي انتهى بموت جوسيكارد سنة 1085 م.

2- لم يستطع مجابهة البشناق فحرض عليهم قبائل الكومان فجرت المواجهة التي أدت إلى تمزيق أوصال البشناق سنة 1091 م .

3- ظل تقدم الأتراك السلاجقة في أراضي الإمبراطورية إلاّ أن ألكسوس كومنين هادنهم .

هل هذه الحال تدعو إلى حملة من الغرب الكاثوليكي ؟

اتضح مما سبق أن ألكسوس كومنين لم يكن شجاعا فحسب و إنما غاية في الكفاءة و القدرة ، و هكذا ظل عاكفا على تنظيم إمبراطوريته و إعادة بناء جيشه لتأمين حدوده ، و كانت إعادة بناء الجيش تستوجب الاعتماد على المرتزقة الذين صاروا عماد قوة الجيش البيزنطي حيث تلاشت الإقطاعات الصغيرة التي كان لأصحابها المصدر الأساسي لجنود الجيش ، و كان أحد أسباب دخول الإمبراطور في مفاوضات مع البابا أوربان الثاني أن الأول يريد مساعدة الثاني في تجنيد المرتزقة من غرب أوروبا ، و الثاني يريد انتهاز الفرصة لتوحيد الكنيستين تحت زعامته[2] ، بعد الانشقاق الذي حدث منذ ماي 1054 م ، و في سنة 1089 م تلقى ألكسوس كومنين رسالة من البابا أوربان الثاني يحثه فيها على إرساء السلام و الانسجام بين الكنيستين و يشكو

---

[1]- من القبايل التي شنت هجومات على بيزنطة « البشناق » و هم قبائل بدوية من أصل تركي ، استمرت هجماتهم على البلقان خلال فترات قسطنطين الثامن ( 1025 – 1028 م ) و قسطنطين التاسع (1043 – 1067 ) ، شنت هذه القبائل أكبر هجوم حيث دمروا الجيش البيزنطي سنة 1053 م و لكنهم لزموا السكون خلال فترة الإمبراطورة تيودورا ( 1055 – 1056 م ) و حكم ميخائيل السادس ( 1056 – 1075 م ) ثم انضموا لهجوم المجريين ضد الامبراطورية البيزنطية سنة 1059 م و بعد خلع الامبراطور ميخائيل السابع ( 1071 – 1078 م ) اندلعت الحرب الأهلية داخل الامبراطورية مما اتاح الفرصة للبشناق و غيرهم لنهب بيزنطة في البلقان و كان هذا هو الحال عندما تولى ألكسوس كومنين الحكم أنظر : قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص 84 – 85.

[2]- قاسم عبده قاسم ، المرجع السابق ، ص 91.

من أن اسم بابا روما قد رفع من مراسيم بطريركية القسطنطينية دونما سند من القانون الكنسي و يطلب إعادة الاسم ، و الحقيقة أن البابا أوربان الثاني كان يواصل نفس سياسة سلفه جريجوري السابع في هذا الشأن الذي حاول أن يُحَوِل ورطة بيزنطة في مانزكرت إلى ميزة و مصدر نفع للبابوية.

و في الفترة ما بين أوت 1094 م و جانفي 1095 م وجه خطابا منسوبا لألكسوس كومنين إلى أوربان الثاني و إلى «كل المؤمنين في الغرب » يطلب منهم النجدة لمواجهة المسلمين ، و الوثيقة مشكوك في أمرها و يمكن أن تكون من الوثائق المزورة التي استعملتها الكنيسة لتبرير دعوتها للحملة الصليبية[1] ، و ذلك أن ألكسوس كومنين دأب على مراسلة الغرب في طلب المرتزقة فحسب ، بخاصة إذا علمنا أن أوضاع بيزنطة أصبحت على أحسن حال ، و لم يعد الخطر السلجوقي محدقا بالإمبراطورية مثلما كان الحال قبل عشر سنوات ، و أن ألكسوس كومنين كان يطلب – فقط – مرتزقة و لم يكن يطلب حملة صليبية . و في مجمع بياكنزا في إيطاليا ( مارس 1095 م ) يُقال أن في ذلك المجمع وجه ألكسوس مومنين رسالة إلى أوربان الثاني جعل الحاضرين يقسمون على الذهاب لمساعدة الإمبراطورية بكل ما في وسعهم من قوة[2].

**الخطاب في كليرمون ؟**

إن ما أورده محمد ماهر حمادة في كتابه وثائق الحروب الصليبية ، هو إحدى النصوص المترجمة لإحدى الخطابات التي نسبت للبابا أوربان الثاني في كليرمون .

**و من نص الخطاب يمكننا أن نقرأ :**

أ- لقد كانت الفكرة الحاسمة في كليرمون هي عسكرة الحج و إضفاء طابع القداسة على هذه الممارسة في الوقت نفسه ، و كان الصليبي في حقيقته حاجا يتمتع بامتياز حمل السلاح حيث كان سيفه مباركا من قبل الكنيسة .

ب- أن الغفران الذي منحه أوربان الثاني لم يكن غفرانا كاملا ، غير أن الناس فهموه كاملا : « إنني أخاطب الحاضرين ، و أعلن لأولئك الغائبين ، فضلا أن المسيح يأمر بهذا ، بأنه سوف يتم غفران ذنوب كل أولئك الذاهبين إلى هناك إذا انتهت حياتهم بأغلالها الدنيوية سواء في مسيرتهم على الأرض أو أثناء عبورهم البحر ، أو في خضم قتالهم ضد الوثنيين ، الغفران أمنحه لكل من يذهب بمقتضى السلطة التي أعطاني الرب أياها [3].

[1]- الفترة التي شهدت نضج الفكرة الصليبية – حركة الإحياء الديني منذ القرن 10 م – في الغرب الأوروبي الكاثوليكي كانت نفسها هي فترة التراجع البيزنطي على النحو الذي جعل من بيزنطة تلجأ إلى طلب المساعدة .

[2]- كانت البابوية في صراع مع الملكية ( السلطة العلمانية ) التي أفقدتها سطوتها في السابق ( قبل القرن 10 م ) و عندما بدأت سطوة الكنيسة في التراجع أرادت أن تغطيها بالدعوة للحملة الصليبية .

[3] Fulcher des chartres,(R.H-C Hist occ) pp 61-63

و يشير هذا الخطاب إلى الغفران الجزئي لكل من شارك في الحملة دون غيره ، غير أن العامة حرفوا في الخطاب « و من ثم فإنني لست أنا ، و لكن الرب هو الذي يحتكم باعتباركم وزراء المسيح أن تحضوا الناس من شتى الطبقات ».

جـ - وجه البابا خطابه لكبار الإقطاعيين و الأمراء لحملهم للخروج إلى فلسطين .

د – امتدح شجاعة الفرنج و أمجادهم و أدان حربهم بعضهم بعضا و اقتتالهم المستمر ، و كلمات البابا تشير إلة حقيقة مفادها أن الزيادة السكانية في أوروبا الغربية خلال القرن 11 م من أهم الأسباب التي حفزت على البحث عن أرض جديدة و موارد جديدة خارج أوروبا ، و إذا كانت جبهات التوسع عاجزة عن تحقيق هذه الطموحات جاءت الدعوة للتوسع نحو الشرق.

هـ- الصليب : كان علامة على الحماية الإلهية أي علاقة تدل على أن حاملها ينتمي إلى جماعة خاصة من الحجاج الذين تمتعوا بحمل السلاح ، كما أنه – الصليب – كان شارة قانوينة تدل على الامتيازات الدنيوية لأن الكنيسة أصدرت مراسيم منها : إعفاء ممتلكات المشارك في الحملة من الضرائب خلال فترة غيابه ، و وضعت تسهيلات في الديون ، كما أن شارة الصليب تدل على استبعاد غير المشاركين في الحملة من الدخول ضمن المجموع الذين ميزوا بالصليب.

و هكذا صاح الجميع في كليرمون Deus Vult و خيطت الصلبان.

**أحوال أوروبا و العالم الإسلامي قبيل الحروب الصليبية :**

اعتاد المؤرخون أن يبدؤا الحديث عن الحروب الصليبية بالإشارة إلى أحوال الشرق الأدنى في القرن 4 – 5 هـ / 10-11 م فيتعرضون للدولة العباسية أيام ضعفها حتى كان ظهور السلاجقة ، ثم ينتقلون إلى الصراع السلجوقي البيزنطي في آسيا الصغرى ، و كيف أدت استغاثة البيزنطيين بالغرب الأوروبي و البابوية عقب معركة مانزكرت 463 هـ / 1071 م إلى إثارة الحروب الصليبية .

و مع اعترافنا بوجاهة اتخاذ أحوال الشرق الأدنى مدخلا للحروب الصليبية ، إلا أننا نرى أن المدخل الطبيعي للموضوع يأتي من ناحية الغرب لا الشرق . حقيقة أن الاستغاثة ضد المسلمين أتت من الشرق ، غير

أن البواعث التي دفعت الغرب إلى تلبية تلك الاستغاثة و الإسراع في الاستجابة لها و الرد عليها ردا عمليا ، هذه البواعث كلها غربية و لا يمكن فهمها إلا بالوقوف على أوضاع الغرب الأوروبي وقتئذ[1].

أعقب سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية سنة 476 م على أيدي الجرمان البرابرة ، فترة قاتمة امتدت حتى القرن 5 هـ / 11 م ، و لم تقتصر مظاهر التأخر و الانحلال التي أصابت المجتمع الأوروبي في تلك الفترة على الانحلال السياسي ، إنما امتد التدهور إلى الجوانب الاجتماعية و الثقافية و الاقتصادية أيضا ، و إذا كان الغرب الأوروبي قد شاهد على أيام شارلمان في أواخر القرن 8 م و أوائل القرن 9 م صحوة ، فإن هذه الصحوة جاءت قصيرة العمر ، و لم تلبث جموع الفايكينغ أن أخذت تنزح من الشمال لتغير على مواطن الحضارة و تدمرها في غرب أوروبا ، في الوقت الذي توغل الهنغاريون في وسط القارة حتى شرق ألمانيا يخربون و يفسدون [2].

و خلال تلك الأزمات تحايل الغرب الأوروبي بالنظام الإقطاعي للحصول على قدر من الأمان و الحماية ، فانحلت السلطات المركزية ( سلطة الملوك ) منذ القرن 9 م ، و اضطر الأباطرة إلى التنازل عن كثير من حقوقهم و سلطاتهم لأمراء الإقطاع.

و لكن إذا كان كبار الأمراء الإقطاعيين قد نجحوا في حماية رعاياهم من الهجمات الخارجية ، فإن أولئك الرعايا دفعوا الثمن غاليا في ظل نظام اعتمد في فلاحة الأرض على الأقنان و الرقيق ، و قام على أساس تحكم القوي في الضعيف.

و لم يكن في استطاعة البابوية و الكنيسة الغربية أن تساهم بأي جهد لتعديل الأوضاع ، لأن الكنيسة نفسها – التي ظلت منذ سقوط الإمبراطورية الغربية سنة 476 م تمثل أكبر قوة في المجتمع الغربي – تعرضت هي الأخرى لموجة جارفة من الانحلال و الذبول في القرنين 9 – 10 م ، فجرف النظام الإقطاعي رجال الدين و تصدع سلطان البابوية و قل شأن رجالاتها[3].

**أحوال أوروبا و العالم الإسلامي خلال القرن 5 هـ / 11 م:**

كانت أوروبا مجرد منطقة جغرافية لم تتشكل بعد على المستوى السياسي ، كما أنها كانت مجرد منطقة ريفية متخلفة بالقياس إلى كل من بيزنطة و العالم الإسلامي ، فقد وصلت كل من الحضارة الإسلامية و البيزنطية إلى قمتها ، و بدأت بيزنطة منذ القرن 5 هـ / 11 م تعاني مظاهر التآكل البطيء و الضعف الناجم عن الصراع الداخلي و الهزيمة الخارجية الفادحة على يد المسلمين السلاجقة في معركة مانزكرت 463 هـ /

---

[1]- سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ 1 ، ص 17.
[2]- سعيد عبد الفتاح عاشور ،المرجع السابق ، جـ 1 ، ص 17.
[3]- نفسه ، ص 335 – 339.

1071 م ، أما العالم الإسلامي فكان يعاني التشرذم و الضعف السياسي على الرم من أنه كان لا يزال يحتفظ بإمكاناته العسكرية و البشرية .

**أ – أحوال أوروبا :**

شهدت أوروبا خلال القرن 5 هـ / 11 م من وجهة نظر الغرب قادة كبارا و زعماء بارزين مثل : وليم الفاتح ملك إنجلترا و الإمبراطورين الألمانيين هنري الثالث و ابنه هنري الرابع ، و روجر النورماندي حاكم صقلية و روبرت جوسيكارد الذي كان ابنه بوهيمند من أبرز قادة الحملة الصليبية الأولى ، و ملك قشتالة ( إسبانيا ) ألفونسو VI و كان هؤلاء جميعا يبحثون عن السلطة و المجد خارج مناطقهم.

كما عاش خلال القرن 5 هـ / 11 م معظم البابوات الإصلاحيين و أبرزهم البابا جريجوري السابع ، و كان خليفته أوربان الثاني صاحب الدعوة للحملة الصليبية ، و كان البابوات في هذه الفترة يرغبون في تحقيق السمو البابوي ، فقد وجه البابا أوربان الثاني دعوته إلى الأمراء الإقطاعيين دون الملوك الذين كان في خصومة معهم من ناحية ، و لكي يكون النبلاء وسيلة البابوية في التصدي لأولئك الملوك من ناحية أخرى.

أما الفلاحون فكانوا يعملون لزيادة حجم الأراضي المزروعة حتى يفوا بحاجات المجتمع الإقطاعي ، فقد عرف القرن 5 هـ / 11 م تحسن نسبي طرأ على مجال الزراعة في أوروبا لم يؤد إلى تحسين أحوال الفلاحين المعيشية و إنما أدى إلى زيادة موارد السادة الإقطاعيين المادية و البشرية.

كما كان حق الإرث يقتصر على الابن الأكبر ، أما الأبناء الذين يصغرونه فكان عليهم أن يبحثوا عن منفذ آخر ، إما بالانضمام للكنيسة أو البحث عن وريثة إقطاعية ليتزوجونها ، أو البحث عن مستقبل عسكري مع البارونات اللصوص ، و لهذا جاءت الدعوة للحملة الصليبية متنفسا و صمام أمن لطبقة الفرسان التي كان عددها ينمو باستمرار.

و نتيجة هاته التغيرات بادر الناس إلى البحث لأنفسهم عن حياة أفضل ، فقد أخذ الناس يسافرون إلى مناطق الحدود ، و ما وراء البحار بحثا عن فرص أحسن و أملا في تحقيق طموحاتهم.

كانت السنوات العشر التي سبقت الدعوة إلى الحملة الصليبية الأولى سن 488 هـ / 1095 م سنوات صعبة بالفعل على سكان أوروبا الغربية ، و لاسيما سكان شمال فرنسا و غرب ألمانيا ، إذ شهدت تلك السنوات سلسلة تكاد تكون متصلة من الفيضانات و المجاعة ، و منذ سنة 491 هـ / 1098 م كان الرعب يمتلك الناس في تلك المناطق من ذلك الوباء الغامض الذي كان يضرب فجأة إحدى القرى أو المدن ، و من الطبيعي أن يكون رد فعل الناس في إطار رد الفعل الجماهيري أي التعلق بالدين ، او محاولة التكفير عن الذنوب و التجمع

حول الزهاد و النساك بحثا عن الخلاص ، و لذا راقت الدعوة التي وجهها البابا أوربان الثاني لشن حملة صليبية ضد المسلمين في عيون الفلاحين و الفقراء ، و رأوا فيها نبوءة تعدهم بالخلاص.

**ب- احوال العالم الإسلامي :**

كان ظهور الأتراك السلاجقة في القرن 5 هـ / 11 م علامة على مرحلة جديدة في تاريخ العالم الإسلامي و في تاريخ بيزنطة أيضا ، لقد كان السلاجقة من الأتراك الغز و هم قبائل بدوية اعتنقوا الإسلام في القرن 4 هـ / 10 م على مذهب أهل السنة ( أحناف ) ، و بدأوا دورهم السياسي النشط في القرن 5 هـ / 11 م ، فقد وجه طغر لبك و دخل بغداد بناء على طلب الخليفة العباسي سنة 447 هـ / 1055 م لكي يخلصه من البساسري الذي كان يطمح إلى بسط نفوذ الخلافة الفاطمية الشيعية على بغداد ، و قد أخمد طغر لبك مؤامرة البساسري و قتله ، و دخل السلاجقة بغداد ليحلوا محل البويهيين في الهيمنة على الخلافة العباسية الضعيفة.

و كان السلاجقة قد تمكنوا في ذلك الحين من بسط نفوذهم على المنطقة الممتدة بين خراسان و بغداد ، و بات توسعهم إلى الشمال و الغرب على حساب الأرمن و البيزنطيين و الفاطميين جميعا أمرا حتميا.

و في القرن 5 هـ / 11 م كان المسلمون في بلاد الشام موزعين في ولائهم السياسي بين الخلافة العباسية السنية في بغداد ، و الفاطمية الشيعية في القاهرة ، و بالإضافة إلى النزاع و التخاصم بين الخلافتين فإن أحوالهما الداخلية كانت مرتبكة بقدر الذي جعل بلاد الشام موزعة إلى عدة إمارات صغيرة ، فقبيل الحملة الصليبية الأولى كانت كل مدينة كبيرة في بلاد الشام تقريبا إمارة مستقلة تحت حكم حاكم عربي أو من الأتراك السلاجقة ، تعيش حالة من العداء و التمزق و التنافر مما ساهم في نجاح الصليبيين بالمنطقة و هذه الإمارات هي :

1- إمارة حلب و صابها رضوان بن تتش و كان ميالا للشيعة الإسماعلية .

2 – إمارة دمشق و صاحبها دقاق و كان مواليا للعباسيين .

3- إمارة شيرز كانت لأصحابها من بني منقذ و هم شيعة إثنى عشرية عرب .

4- بنو عمار الشيعة و كانت طرابلس إمارتهم .

5- إمارة بيت المقدس كانت بيد السلاجقة ، ثم تحولت للفاطميين سنة 491 هـ / 1098 م .

و بعد قضاء السلاجقة على البويهيين سنة 447 هـ / 1055 م أعطى ذلك دفعا أنعش الخلافة العباسية بفضل الحيوية العسكرية للسلاجقة ، فقد صارت المنطقة بين خراسان و بلاد الشام وحدة سياسية تتبع الخلافة العباسية إسميا ، و لكنها تدين بالولاء و الخضوع الفعلي للسلاطين السلاجقة في أصفهان لاسيما أيام السلاطين

( طغر لبك ، ألب أرسلان ، ملكشاه ) و بعد ملكشاه احتد الصراع في البيت السلجوقي لاسيما بين سلاجقة الشام و سلاجقة الروم ، فنشب الصراع بين تتش بن ألب أرسلان المعين من قبل السلطان ملكشاه على ولاية الشام و سليمان بن قتلمش صاحب سلاجقة الروم حول السيادة على حلب ، انتهى القتال سنة 479 هـ / 1086 م إلى مرع سليمان بن قتلمش ، و تحول حلب إلى إمارة سلجوقية بعد أن كانت عربية مرداسية ، كما أدى ذلك إلى ازدياد حدة التفكك السياسي بين السلاجقة .

**بواعث الحركة الصليبية [1]**

كانت الحرب الصليبية إفرازا للتفاعل بين الكنيسة و الإقطاع ، فإنها كانت تسعى بالضرورة إلى تحقيق الأهداف الكنسية التي كانت البابوية قد بلورتها من خلال نزاعها مع الإمبراطورية ، و هي أهداف تتمركز أساسا حول السيادة المطلقة للبابا على العالم المسيحي ، كما أن الحركة الصليبية من ناحية أخرى كانت محاولة لتحقيق أهداف الناس العلمانيين الذين خضعوا للتنظيم الإقطاعي سواء كانوا من النبلاء و فرسانهم أو من الفلاحين ، فقد كان الفرسان يتوقون إلى توسيع سلطانهم و أملاكهم ، و لم يكن هذا ممكنا دون الصدام مع الملكية ، و بينما كانت البابوية تحارب الملكية من أجل السيادة و السمو ، كان النبلاء الإقطاعيون يتطلعون إلى بناء سلطتهم الإقليمية على حساب الملكية ، و لعل هذا هو السبب الذي جعل البابا أوربان الثاني يوجه خطابه إلى الفرسان الفرنسيين بالذات ، لأن فرنسا كانت لا تزال الدولة الإقطاعية الوحيدة التي لم يتطور فيها الإقطاع كغيرها من دول أوروبا آنذاك ، أما البرجوازية الناشئة الممثلة في المدن التجارية الإيطالية على وجه الخصوص ( جنوة، بيزا ، البندقية ) فقد رأت في المشروع الصليبي فرصة هامة للسيطرة على تجارة بحر الشام ( البحر المتوسط ) و تجارة العالم ، و لهذا سارعت بالانضمام للمشروع الصليبي بعد أن صار حقيقة واقعة ، و أخذت امتياز نقل الجند مقابل بامتياز السيطرة على الموانئ الشرقية.

**1- الباعث الديني :**

حقيقة أن الحركة الصليبية لها في اسمها و طريقة الدعوة لها و الروح التي كيفت كثيرا من أحداثها ، ما يجعل الصبغة الدينية واضحة فيها ، و لكن ليس معنى هذا أن التيار الديني هو المسؤول الوحيد عن إثارة تلك الحركة و القوة الوحيدة الموجهة لها. و إن المدقق في تاريخ الحروب الصليبية ليسترعي نظره أن الروح الصليبية ذاتها كثيرا ما فترت في بعض حلقاتها ، و أن الباعث الديني كثيرا ما ذاب وسط التيارات السياسية و الاقتصادية بوجه خاص[2].

[1]- لا يمكننا فهم البواعث إلا بالرجوع إلى خطاب البابا أوربان الثاني يوم 28 / 11 / 1095 م في مؤتمر كليرمون .
[2]- نرى أن الباعث الديني أساسي في الحركة الصليبية ذلك لأن المجتمع في العصور الوسطى كان مجتمع متدين ، و لا يمكن أن ننظر إلى أي فعل من أفعاله دون الوازع الديني .

**2- الباعث الاقتصادي :**

ندرت الغلات و ارتفعت أسعارها نتيجة لسوء الأحوال الاقتصادية في غرب أوروبا لاسيما في فرنسا ، مما أدى إلى حدوث أزمة حادة في الخبز خلال القرن 5 هـ / 11 م .

و في ضوء هذه الحقيقة يمكننا أن نرى لماذا كانت نسبة الفرنسيين من المشاركين في الحملة الصليبية الأولى تفوق نسبة الوافدين من أي بلد آخر .

و زاد في سوء الأحوال الاقتصادية في أوروبا الغربية في ذلك الوقت كثرة الحروب المحلية بين الأمراء الإقطاعيين ، و هي الحروب التي لم تنجح الكنيسة أو الملوك في وقفها مما أضر بالتجارة و طرقها و الزراعة و حقولها أبلغ الضرر ، و هكذا جاءت الحروب الصليبية لتفتح أمام أولئك الجوعى في غرب أوروبا بابا جديدا للهجرة و الحياة ، و طريقا للخلاص من الأوضاع الاقتصادية الصعبة التي عاشوا فيها داخل أوطانهم.

**3- الباعث الاجتماعي :**

تألف المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى من طبقات ثلاث : طبقة رجال الدين من الكنسيين و الديريين ، و طبقة المحاربين من النبلاء و الفرسان ، و طبقة الفلاحين من الأقنان و رقيق الأرض ، كانت الطبقتان الأولتان أقلية تمثل في مجموعها الهيئة الحاكمة من وجهة النظر السياسية ، و الأرستقراطية السائدة من وجهة النظر الاجتماعية ، و ظلت طبقة الفلاحين و الأقنان تمثل الغالبية المغلوبة على أمرها ، و كان لزاما على أفرادها العمل و المشقة لتلبية حاجات رجال الدين و الإقطاعيين من النبلاء و الفرسان ، فقد كان هؤلاء الفلاحين مرتبطين ارتباطا وثيقا بالأرض التي يعملون عليها محرومين من أبسط مبادئ الحرية الشخصية ، و كل ما يجمعونه يعتبر ملكا خاصا السيد الإقطاعي لأن القن محروم حتى من الملكية الخاصة ، كما أستغل الفلاحون في أعمال السخرة ( حفر الخنادق و شق الطرق ) ، كما كان عليهم دفع ضريبة سنوية

« ضريبة ارأس » برهانا للتبعية للسيد ، هذا عدا الضرائب المفروضة على ماشيتهم و ما تنتجه أرضهم ، و لذا رأى هؤلاء في الدعوة للحملة الصليبية فرصة للتخلص من حياة الذل و الهوان.

**4- الباعث السياسي :**

إن معظم ملوك أوروبا خرجوا لحرب المسلمين تحت ضغط البابوية و إلحاحها بل تهديدها ، و تاريخ الحروب الصليبية يشهد على السفارات العديدة التي دأب البابوات على إرسالها بين الحين و الآخر إلى ملوك أوروبا يلحون عليهم للخروج على رأس جيوشهم إلى الشرق ، و العارف بتاريخ الحروب الصليبية و الدارس لوضع الغرب الأوروبي في العصور الوسطى يعرف جيدا مدى قوة الكنيسة و عظم سلطانها ، و أن ملكا من

ملوك أوروبا كان لا يستطيع أن يعصي لها أمرا ، أو يرد لها طلبا ، و إلا تعرض للحرمان و الطرد من الكنيسة و رحمتها ، فلا يستطيع لا الاحتفاظ بعرشه ، و لا بولاء شعبه.

**مراحل الحروب الصليبية :**

إن هذا التقسيم الذي سنعرض له لا يمثل بالضرورة الواقع التاريخي بحذافره ، ذلك لأن المرحلة الواحدة قد تكون خليطا للمراحل الثلاث.

**1- دور التفوق الصليبي :**

و يبدأ بالحملة الأولى 491 هـ / 1097 م ، حيث شهد العالم الإسلامي خلاله مرحلة من الفوضى و الانقسام و التنافر ، كما وجد عدد من الخونة ساهم في بلوغ الصليبيين أهدافهم كما فعل نيروز ( الزراد ، فيروز الأرميني ) حينما سلم أحد أبراج أنطاكية لـ بوهيمند في جمادى الثانية 491 هـ / 2 جوان 1098 م ، كما تحالف بعض المسلمين مع الصليبيين ضد إخوانهم ، و بقى بعضهم يتفرج دون تدخل ، بل إن كثيرا من حكام بلاد الشام المسلمين لم يشارك في ردع الصليبيين خوفا على ممتلكاتهم ، و انتهى هذا الدور بسقوط إمارة الرها بأيدي زنكي 539 هـ / 1144 م .

**2- دور توازن القوى :**

و يبدأ بتولية نور الدين محمود سنة 451 هـ / 1146 م حيث عمل على إتمام عمل أبيه في الوحدة على الجبهة الإسلامية ، ثم وجه شيركوه إلى مصر ، لأجل إسقاط الخلافة الفاطمية ، التي أسقطها صلاح الدين الأيوبي أول جمعة من سنة 567 هـ / 10 سبتمبر 1171 م .

و بوفاة نور الدين 11 شوال 569 هـ / 1174 م تولى مكانه ابنه الصالح إسماعيل الضعيف ، فاشتد النزاع بين الزنكيين على السلطة ، و أمام هذه الأوضاع أعلن صلاح الدين نفسه وريثا للزنكيين منذ سنة 570 هـ / 1175 م و بدأ عملية الوحدة حتى استطاع أخيرا أن يوحد الشام و الجزيرة و مصر و العراق ضد الصليبيين في معركة حطين و هزمهم و كان ذلك في 24 ربيع الأولى 583 هـ / 1187 م .

**3- دور الانهيار الصليبي :**

و يبدأ بالحملة الصليبية الثالثة بقيادة ريتشارد قلب الاسد ملك إنجلترا و فيليب أغسطس ملك فرنسا سنة 587 هـ / 1191 م كرد فعل على هزيمة حطين ، و أدت إلى صلح الرملة 588 هـ / 1192 م الذي أبقى الوضع بالشام على حاله ، و توفي بعدها صلاح الدين يوم 27 صفر 589 هـ / 4 مارس 1193 م ، و يستمر هذا الدور خلال العهد الأيوبي ثم المملوكي حتى حكم السلطان الأشرف خليل المنصور بن قلاوون الذي أكمل

دور أبيه في سنة 690 هـ / 1291 م بحيث كانت جيوشه تحاصر عكا التي لم يصمد بها الصليبيون أكثر من ثلاثة و أربعين ( 43 ) يوما ، و حررت أخيرا بعد أسر دام 103 سنين ، و بعد عكا سقطت المدن و المعاقل الصليبية ببلاد الشام تباعا و دانت دولة الفرنج من فلسطين إلى غير رجعة .

**الحملات الصليبية :**

و عددها ثمانية ( مشهورة ) منها أربعة نحو الشام و هي : الأولى ، الثانية ، الثالثة و السادسة ، و اثنتان على مصر و هي الخامسة و السابعة و واحدة على القسطنطينية وهي الرابعة و الثامنة على شمال إفريقية.

جغرافية بلاد الشام :

تمتد بلاد الشام في العصور الوسطى كما وصفها الجغرافيون المسلمون من الفرات إلى مصر ، و ظلت تعتبر كذلك حتى نهاية العهد العثماني ، إذ تحدها من الشرق البادية من أيلة ( على البحر الأحمر ) إلى الفرات ، و من الغرب بحر الشام ، أما غربها البري فيمتد من جبال طوروس غرب أذنة إلى رفح بين مصر و الشام ، و يحدها شمالا حد يمتد من بالس مع الفرات إلى قلعة نجم ثم إلى البيرة إلى قلعة الروم إلى سمسياط إلى حصن منصور إلى بهنسى إلى مرعش إلى بلاد سيس إلى طرسوس ، أما الحد الجنوبي فيمتد من رفح إلى تيه بني إسرائيل ما بين الشوبك ( قلعة ) و أيلة إلى البلقاء و هو النصف الجنوبي من إقليم شرق الأردن.

و لعل من أهم الأسباب أو العوامل التي أثرت في تاريخ بلاد الشام وضعه الجغرافي الذي يتكون من بيئات طبيعية متعددة و متباينة تجمع بين المتناقضات جميعها ، فهناك الجبل و السهل و الصحاري و الأراضي الزراعية ، كما أن إقليم الشام يتميز بتنوع الأرض من ارتفاع و انخفاض يسيران في سمت مسارا طوليا من الشمال إلى الجنوب ، لذلك فقد كان التقسيم الطولي هو أنسب التقاسيم لطبيعة بلاد الشام ،التي تمتد إلى شمالها الغربي سلسلة جبال طوروس التي تتصل جنوبا بجبال الأكراد (كورد داغ ) و اللكام ( الأمانوس ) الذي يمتد جنوبا ليتصل بجبال لبنان الشرقية و الغربية و هذه الكتلة تمتد على شكل هلال من الشرق بجبل الجودي شرق الموصل – إلى جبال سورية و لبنان في الجنوب مكونة فاصلا بين الشام و الجزيرة مما جعل نقاط العبور إليهما إلى الجنوب من هذه السلسلة و تنقسم بلاد الشام إلى خمسة ( 5 ) أقسام طولية :

**1- السهل الساحلي :**

و هو عبارة عن شريط شرق بحر الشام و غرب الجبل ، و يمتد من ساحل شبه جزيرة سيناء جنوبا حتى خليج الإسكندرونة شمالا ، و هو متسع في الشمال و الجنوب حيث يبلغ اتساعه عند عسقلان جنوبا عشرون ميلا ، و يضيق عند لبنان و ينقطع امتداد السهل الساحلي في نقطتين الأولى إلى الجنوب من نهر الكلب فيصل الجبل إلى البحر ، و الثانية عند جبل الكرمل ، و قد أفاد السكان من هذه الميزة فائدة عظيمة إذ

اعطتهم موقعا استراتيجيا هاما ، فقد شكل ذلك مانعا طبيعيا أمام القوات المعادية السالكة لهذا السهل ، و بالرغم من امتداد السهل لهذه المسافة الكبيرة إلا أننا لا نجد خليجا نهريا عميقا اللهم إلا خليج الإسكندرونة شمالا و قد ترتب على ذلك عدم وجود موانئ هامة ، و ذلك بسبب أن الساحل في امتداده في الغالب لا يزيد عمقه عن 100 متر ، ثم أنه مغطى بالرمال الناعمة التي لا تساعد على رسو السفن للإنزال البحري ، لذلك كان الإنزال الصليبي في ميناء الإسكندرونة ، أما مينائي عكا و حيفا فقد استعملا لإنزال الحجاج فقط.

**2- سلسلة الجبال الغربية :**

و تقع إلى الشرق من السهل الساحلي الذي يمتد من جبال الأمانوس ( اللكام ) شمالا حتى جبل سيناء في الجنوب ، مكونة سلسلة من المرتفعات التي تشكل عائقا أمام الاتصال بين البحر و داخل الشام ، و يمكن عبور هذا العائق في عدة مواضع عن طريق الجسر السوري مع سهول ما بين النهرين ، و عند تصدع مرج بن عامر شرقي عكا و حيفا ، و عن طريق وادي النهر الكبير شمال طرابلس ( ممر القاسمية ) ، و لذلك فقد كان على الجيوش الصليبية المتجهة إلى ظهير بلاد الشام أن تسلك أحد هذه الأبواب ( PELAE ) على أن أهم جبال هذه السلسلة هو جبل الأمانوس الذي يفصل بين الشام و آسيا الصغرى و يقطع هذا الجبل في جزئه الجنوبي نهر العاصي ، و هذا الجبل يعرف بالأقرع – ذلك لأنه تتراكم عليه الثلوج لفترة طويلة و ما إن تذوب حتى تعمل عملها في القضاء على الغطاء النباتي للجبل و أمام التعرية التي تعرض لها هذا الجبل في جزئه لهذا سمي بالأقرع – و يقطع طرقا تمتد إلى أنطاكية و حلب مارة بمضيق بيلان المعروف بالأبواب السورية ( SYRIAN PELAE ) و تمر هذه الجبال باللاذقية و تعرف بجبال النصيرية ( العلوية ) نسبة لقاطنيها من طائفة النصيرية أو العلوية ، و تضم هذه الجبال أودية عميقة و كثيرة ، و بعضها شديد الوعورة و الارتفاع و ذات ميل حاد مما جعلها مرتعا لطائفتي الشيعة الإسماعلية ( الحشاشون ) و النصيرية ، كما اتخذ الصليبيون من هذه المواقع الحصينة مكانا لبناء قلاعهم و حصونهم [1] ، على أن أعلى قمم هذه السلسلة الجبلية جبال لبنان الغربية التي تمتد من النهر الكبير حتى نهر القاسمية مما يشكل صعوبة في التنقل ، لذلك كانت ملجأ للأفراد و الجماعات ذات الميول المعادية للسلطة الحاكمة ، حيث نجد الدروز و الموارنة يتخذونها مسكنا .

وتستمر هذه السلسلة في الامتداد نحو الجنوب حتى الجليل [2] الأعلى إلا أنها تنقطع عند مرج بن عامر الذي يفصل تلال الجليل في الشمال عن المرتفعات السامرة و اليهودية في الجنوب .

و تتمثل أهمية جبل الجليل في أنه همزة وصل بين بلاد الشام الوسطى و الشمالية بالمناطق الجنوبية منها بواسطة سهل البقاع – ( ممر سرغايا – القاسمية )[3] أو عن طرق الساحل عبر صيدا و صور و الناقورة

---

[1]- لمزيد من التفاصيل حول القلاع أنظر : R.FEDDEN,Crusades Castles,pp 11-12

[2]- جبل الجليل أو عامل أو عاملة أو الخليل ، أول اهتمام صليبي به كان على عهد الملك بلدوين الذي وجه له حملة سنة 504 هـ / 1111 م و بنيت به تسعة (9) من أهم المعاقل الصليبية منها : تبنين ، هونين ، شقيف أرنون و غيرها.

[3] - يعد هذا الممر الحد الفاصل بين جبل لبنان الغربية و جبل الجليل .

، و هذه المنطقة كانت تصل بين الإمارات و الممالك الفرنجية في الشمال في الرها و أنطاكيا و طرابلس و بين مملكة بيت المقدس في الجنوب ، كما أن كون جبل الجليل ( عاملة ) قريبا من تخوم دمشق فكانت وديانه و مسالكه معبرا للفرق العسكرية المهاجمة من دمشق لمناطق الفرنج لاسيما سنة 504 هـ / 1111 م من قبل مودود ، و سنة 578 هـ / 1182 م من قبل صلاح الدين عندما هاجم الساحل ، كما كانت مرافئ جبل عاملة أو الجليل ( صيدا و صور ) تخرج منها تجارة الشام ( دمشق ) و لذلك عمل المسلمون من الحفاظ عليه من السقوط بيد الفرنج .

**3- السهل الداخلي :**

يقع إلى شرق السلسلة الغربية و يبدأ من الشمال بسهل العمق ، فسهل البقاع ، و يمتد في وادي الأردن حتى البحر الميت ثم وادي عربة حتى خليج العقبة ، و أهم سهول المنطقة ( سهول حمص ، حلب ، حماه ) و تمتد سهول حلب بين وادي الفرات و العمق و تحف بها هضبتي حلب في الشمال الشرقي و أعزار في الشمال الغربي التي يخترقها الطريق من بغراس إلى حلب مباشرة دون المرور بأنطاكية و الأثاربة عبر الطريق التقليدي و المعروف ، و يجري بسهول حلب نهران القويق و الذهب ، أما سهول حمص – حماه فشمالها جبال الزاوية بين كفر طاب و أفامية ، و في الجنوب جبال لبنان الشرقية التي تتصل بالمنخفض الأخدودي عند المنطقة التي يجري فيها العاصي ، و هذه السهول عبارة عن هضبة مستوية تمتد حتى يخترقها نهر الفرات ، و الأرض بين حلب و حمص مستوية خالية من الموانع الطبيعية حتى تصادف جبال طوروس شمالا ، لذلك فليس هناك ما يعيق العمليات الحربية السريعة في هذه المنطقة ، فهي تعتب بحق مسرحا للصراع الإسلامي – الصليبي عصر الحروب الصليبية لاسيما أيام قوة الصليبيين ( 491 – 541 هـ / 1097 – 1146 م ) .

**4- جبال لبنان الشرقية :**

تكاد تكون موازية لجبال لبنان الغربية و تنحدر انحدارا فجائيا ناحية الغرب و تدريجيا نحو الشرق و هي قليلة الممرات لا تخترقها إلا طرق و مسالك وعرة لا يلجأ إليها إلا عند الضرورة القصوى ،و اهم ممراتها ممر سرغايا و وادي المقرن اللذان يقابلان ممر القاسمية من ناحية جبال لبنان الغربية و ليس من طريق آخر يصل الظهير بالساحل عبر كتلتي جبال لبنان الشرقية و الغربية ، و سهل البقاع الذي يجب أن يضاف إلى صعوبة الاتصال بين الداخل و الساحل ، سوى الطريق الذي يدور حول جبل حرمون ( الشيخ أو الجولان ) من الجنوب ، و طريق دمشق – حمص عبر بعلبك الذي يستفيد من تفرق سلاسل هذه الكتلة و انتشارها الشرق .

أما سهل البقاع الذي يقع بين هذين الكتلتين فهو مفتوح إلى الشمال حيث لا يفصله عن بادية الشام حاجز ، فلذلك فقد كان مفتوحا أما القادمين من تلك النواحي ، و لم يتوغل فيه الصليبين إلا بعد أخذهم لكفر طاب و المعرة و أفامية و غيرها من المناطق شرقي البقاع .

**5- بادية الشام :**

تقع إلى الشرق من جبال لبنان الشرقية ، و هي تُكَوِن مثلثا رأسه عند حلب شمالا و قاعدته عند خليج الكويت في المشرق و خليج العقبة في الغرب ، و أرض بادية الشام القاحلة و هي امتداد لصحراء العرب التي تفصل الشام عن العراق ، إلا أن بها مناطق بركانية – سهل حوران – تعتبر المصدر الرئيسي للجنوب بالمنطقة لذلك كانت هدفا للحملة الصليبية الثانية 543 هـ / 1148 م .

و البادية لم تعبرها أية جيوش صليبية ، كما أن الطريق الرابط بين الشام و الجزيرة ( ما بين النهرين ) عبر البادية عن طريق دمشق – تدمر – ثم الرصافة على الفرات فالرقة إلى الموصل و غيرها من مناطق الجزيرة عبر طريق الخابور ، هذا الطريق لم تستعمله لا قوات إسلامية و لا صليبية القادمة إلى أو من بلاد الشام و ما بين النهرين .

**6- الممرات إلى بلاد الشام :**

إن جبال اللكام ( الأمانوس ) شمالا تربط بممرين الأول بغجة – بغراس و هو يفصل الأمانوس عن جبال جبور – و هي فرع من جبل الأكراد – و هذا الممر صعب يتراوح ارتفاعه 966 م و تضطر مسالكها لتمس الطريق بين معابر الجبال و تهبط سهوبا مما جعل التحرك فيها عسيرا على الجيوش الكبيرة المنظمة و لا تصلح إلا لجماعات الرعاة ، و هذا الممر أستعمل من قبل جنود الحملة الصليبية الأولى ذلك لأنه يتمتع بميزة انتشار القرى الصغير التي تُمَوِن المارين و كذلك به يمر النهر الأسود حيث يوفر الماء في الصيف الشديد الحر.

الممر الثاني فهو ممر بيلان و هو يفصل جبال الأمانوس عن جبال الأكراد و هذا الممر عبارة عن شقة ضيقة من اليابس تصل خليج الإسكندرونة لاسيما ببغراس التي تعتبر عقدة الطرق الشمالية إلى أنطاكية حيث منها يتجه الطريق إما لأنطاكية جنوبا مباشرة أو إلى حلب شرقا عبر ممر شمالي جبل أعزاز عند مدينة أعزاز ( ممر عفرين ) .

أما ممر الحدث أو درب الحدث و درب الأبواب القليقية شمالا فهما اللذان كانت تعبرهما ندبات الغزو العديدة بين المسلمين و البيزنطيين ، و مناطق العبور هذه عرفت بالأبواب السورية ، و هي تقطع جبال الأمانوس في منطقة أعالي الفرات عند النهر الأسود أو خليج الإسكندرونة في شقة يقدر طولها بنحو150 كلم تمتاز بنوع من الخصب ، و أهمية هذا المعبر تمتاز في أن جميع الطرق التي كانت تربط بحر الشام بالخليج

الفارسي ( العربي ) قد عبرته إلى جانب الجيوش القاصدة المناطق الداخلية ( بلاد الشام و ما بين النهرين ) لأنها – الجيوش – كانت لا تجرؤ على اقتحام بادية الشام المجدبة ، بل كان عليها أن تتبع نطاق الحشائش شمالا بغرب ثم تتجه جنوبا بغرب ، و يتضح مما سبق أن معابر و ممرات الوصول إلى بلاد الشام و ما بين النهرين من ناحية الشمال هي الممرات التي عبرها الصليبيون في جميع حملاتهم القادمة لبلاد الشام و الجزيرة.

و في الجنوب عند طرابلس يوجد منخفض الوادي الكبير الذي على حافته مرتفعات متوسطة الارتفاع تشكل نقطة المرور نحو الظهير الشامي ، و نقطة الوصل الأساسية مدينة عِرقة ، و هذا الممر يفصل جبال لبنان في الجنوب عن جبال النصيرية في الشمال ، يرتفع إلى 600 م ، و كان يستعمل كطريق يربط طرابلس بحمص التي تقع عند مفترق الطرق على نهر العاصي الأعلى ، و ربما نافست هذه الفتحة غيرها من فتحات الظهير الشامي لأن منها تخرج تجارة دمشق ، أما ما يعاب على فتحات الظهير الشامي فبالرغم من تعددها ( الوادي الكبير – مرج بن عامر ) إلا أنها ليست ممهدة طبيعيا بطرق نحو آسيا لذلك فاستعمالها كان نادرا خلال فترة الحروب الصليبية .

**سكان بلاد الشام و الجزيرة :**

تعتبر بلاد الشام و الجزيرة كالفسيفساء بسكانها ، ذلك لأهميتها الدينية و موقعها ، و لظروفها التاريخية[1] ، و كانت هجرات القبائل العربية كثيرة إليها إما للتجارة أو الرعي نتيجة لجفاف أرض الحجاز ، و استقرت أساسا في شمال الشام الذي يعتبر امتدادا طبيعيا لجزيرة العرب ، و كان للعرب دور في الثغور حيث عملوا مع الروم – بعد أن تنصروا – ضد الفرس ، و منهم قبائل لخم و جذام و عاملة و ذبيان وكلب و تنوخ و قضاعة و جهينة و طيء و حمير و كندة و عذرة و زبيد و حمدان و قيس و غيرها.

و سيقتصر الحديث على أهم العناصر السكانية التي كان لها دور كبير في تاريخ المنطقة ، سواء كانوا عربا أو اكرادا أو أرمنا أو أتراكا سلاجقة ، و سنتعرض كذلك للطوائف المذهبية الإسلامية و المسيحية.

**1- العرب :**

وصلت أعداد كبيرة من بني كلاب إلى الشام منذ الفتوحات الإسلامية و تدفقوا مع الحكم العباسي ، و كان تحركهم الكبير من نجد في القرن 4 هـ / 10 م حيث أقاموا دولة في حلب ، و كان انتشارهم ما بين الجزيرة و الشام ، و أدوا دورا كبيرا في المنطقة على أيام الخليفة العباسي المأمون ، كما اجتمعوا إلى سيف الدولة في حلب لاسيما جمع من بني عُقيل و بني كلاب في شمال الشام.

[1]- تتمثل أهمية بلاد الشام الدينية و ذلك لأن الضريح المقدس و كنيسة القيامة ببيت المقدس ، و كذلك كنيسة العذراء بأنطاكية و أنه كان منزل الأنبياء و مسرى النبي محمد (ص) ، أما أهمية الجزيرة الدينية ففي كنيسة الرها التي بها منديل و بعض شعر عيسى عليه السلام على حد زعم المسيحيين ، أما الموقع فكليهما (الشام و الجزيرة ) همزة وصل بين المناطق المجاورة و على طريق التجارة إلى الشرق ، أما الظروف التاريخية فتتمثل في أن الشام و الجزيرة ظلت مكانا لكل الصراعات ، و بذلك كانت مستقرا لكثير من الأجناس و الأمم.

أما بنو طيء فقد ذاع سيطهم بالشام في القرن 4 هـ / 10 م و على أيام عماد الدين زنكي و نور الدين و صلاح الدين في القرن 6 هـ / 12 م ، و ديارهم ممتدة من حمص إلى جعبر و الرحبة و جانب من الفرات و في منطقة حوران ، كما انتشروا بين النهرين و في حماة.

أما بنو منقذ فقد قامت إمارتهم بشيزر منذ عام 447 هـ / 1081 م و ظلت مدينتهم محافظة على استقلالها بعد وفاة السلطان السلجوقي ملكشاه ( ت 485 هـ / 1092 م ) إلى أن هدم الزلزال المدينة عام 552 هـ / 1157 م و كانت لهم مجموعات بحمص على أيام سيف الدولة و في حماه و شمال حلب .

أما التنوخيون فقد نزلوا قبل الإسلام في شمال الشام ، و أقطعهم الأتابك نور الدين 556 هـ / 1160 م المناطق الغربية لشمال الشام و ما تبعها من قرى ، و أقرهم صلاح الدين على ذلك .

أما بنو كلب فقد استقروا في وسط الشام أيام المرداسيين سنة 415 هـ / 1160 م .

**2- الأكراد :**

و معنى كلمة ( كورد ) الدالة على الشعب الكردي ذات اشتقاق فارسي لأن الكلمة فارسية الأصل ، و هي مشتركة في المعنى مع كلمة كاردو البابلية التي معناها المقاتل أو المحارب الشجاع ، إذن فكلمة الأكراد أطلقت على ذلك الشعب الشجاع أو المحارب من قبل جيرانه الفرس منذ القدم ، و كلمة غورد الفارسية تعني المحارب الشجاع ، و أطلقت على الأكراد لشجاعتهم ، ثم أصابها التحريف لتصبح كورد.

كان تمركز الأكراد في أعالي الفرات و حول حوض بحيرة وان (Van) ثم أرمينية و كذلك الناحية الشمالية لنهر دجلة عند الخابور و الزاب الكبير ، و بشكل عام نستطيع الجزم بأن الأكراد و الجبال لا ينفصلان ، و حيث تبدأ السهول يتراجع الأكراد أمام العرب و الترك و الفرس و الأرمن ، كما كانت مجموعات منهم في جزيرة ابن عمر ، كما سكن بعضهم بسنجار و نصيبين و غرب الموصل ، كما أنهم سكنوا ضواحي أنطاكية عند حارم ، و دخل جمع منهم حلب على أيام محمود بن صالح المرداسي سنة 458 هـ / 1065 م .

و قد ورد ذكر الأكراد في بلاد الشام في القرن 5 هـ / 11 م لما زحف ريموند على الساحل في اتجاه الجنوب و احتل معرة النعمان ، ثم استأنف السير مع العاصي محتلا في طريقه حصن الأكراد غرب حمص ، و يسمى كذلك قلعة الحصن بناه أحد أمراء حمص سنة 423 هـ / 1030 م و جعل فيه جماعة من الأكراد ، و نعتبر ذلك تاريخا للأكراد ببلاد الشام، و لاتحاد شمال الشام و الجزيرة منذ القرن 5 هـ / 11 م دورا كبيرا ، فبالإضافة إلى تمكين الأكراد من سكن بلاد الشام ، فقد أوجد هذا الاتحاد حصونا و معسكرات كردية ببلاد الشام كحصن الأكراد ، كما وجدت أعدادا منهم في الحديثة ، كما كانوا بأعداد كبيرة في القلاع و الحصون

بديار بكر ، إلا أن دورهم في حلب لم يظهر إلا على أيام صلاح الدين الأيوبي حيث انتشروا في أطرافها و في حارم و منبج و نهر العاصي ، و كان أغلب جيش صلاح الدين منهم.

و ينقسم الأكراد إلى قبائل متعددة منها ، الجراجمة نسبة إلى جبل الجرجومة بجبل اللكام ، و منهم الشدادية الذين تأسست أسرتهم بتكريت 340 هـ / 951 م و مؤسسها محمد بن شداد و منهم صلاح الدين ، و الأسرة المروانية و التي تأسست سنة 380 هـ / 990 م و مؤسسها أبو علي مروان بن دستق ، و استقروا في ديار بكر بآمد و ميافارقين و أرزن و حصن كيفا ، بل و حتى في أخلاط و مانزكرت ، و في الغرب كانوا في الوقت ذاته عند واجهة الرها فيما بين 416 – 423 هـ / 1025 – 1031 م . و من الأكراد أيضا الهذبانية نسبة إلى أبي الحسن بن موسك الهذباني ، و منهم الحميدية نسبة لأبي الحسن عيكسان الحميدي ، و الروادية نسبة لمحمد الروادي ، و السارلية نسبة لسلار مزريان ، و الجلالية نسبة للجلانية إحدى قلاع الأكراد الهكارية بنواحي الموصل ، أما الجفرة فنسبة إلى موضع بالبصرة.

**3- الأتراك :**

بدأت الهجرة الأولى للأتراك من أقصى تركستان خلال القرن ( 2 ، 3 ، 4 هـ / 8 ، 9 ، 10 م ) و اتجهوا غربا لبلاد ما وراء النهر نظرا لقلة الرعي و سوء الأحوال الاجتماعية ، و خلال القرن 5 هـ / 11 م بدأ استقرارهم في بلاد ما وراء النهر ، و اعتنقوا الإسلام و تعصبوا للسنة ( أحناف ) ، وبعد طغر لبك ( ت : 455 هـ / 1063 م ) امتدت دولتهم غربا إلى حلب و شمالها ، و أصبحت تطل على بحر الشام ( أنطاكية ) ، و كانت حلب هي الحد بين العرب و الترك ، ففي شمالها يغلب العنصر التركي أما في جنوبها فيقل ، وقد استقدم السلطان السلجوقي ملكشاه بن ألب أرسلان أعدادا قليلة من الترك إلى حلب ، و كذلك فعل أخوه تتش ( ت : 488 هـ / 1095 م ) بدمشق ، و خلال القرن 5 هـ / 11 م قدمت أعدادا هائلة منهم إلى الشام ، إلا أنهم لم يستقروا هناك بل بديار بكر ، ثم استقدمهم إلغازي صاحب ماردين إلى الشام و لكن لفترة ، و كان استقرارهم به ( الشام ) على أيام زنكي و نور الدين بشكل دائم ، حيث كان مسكنهم المناطق الوعرة أين يجدون المراعي الجيدة لحيواناتهم .

**4- الأرمن :**

كان تمركز الأرمن بأرمينية الشرقية و في شمال ما بين النهرين في أعلى الجبال ، ثم كانت هجرتهم من هذه الثغور نحو الشام على أيام بني أمية و بني العباس لتعمير الشمال و لتقوية وجودهم هناك ، كما سكنوا بقليقيا و أنطاكيا و حلب ، و على أيام السلطان ملكشاه تصالحوا معه لذلك لم يقوموا بأعمال معادية ، إلا أنهم ما إن يأتي البيزنطيون إلى المنطقة للقيام بأعمال ضد المسلمين حتى تثور فيهم نخوتهم المسيحية و يتعاونون معهم ، و كانت منطقتهم ( المنطقة الأرمينية ) منطقة التماس ( التخوم ) في الصراع الإسلامي – البيزنطي مما أدى

بهم إلى مهادنة الطرفين المتصارعين ، كما تعاون الأرمن مع الصليبيين حيث ساعدوهم في الدخول إلى الرها و كذلك إلى أنطاكيا ، كما كانوا يمثلون مجموعات منفصلة في الجيوش الصليبية في بلاد الشام.

أمام الضغط التي عرفته بلاد الأرمن هاجروا إلى بلاد الشام و منها إلى مصر طلبا للاستقرار ، و بمصر أسلم كثير منهم و ترقوا في مناصبهم حتى بالجيش الفاطمي و منهم بدر بن الفضل الجمالي الذي كان أمير الجيوش الفاطمية في عصر الحروب الصليبية.

**5- الأجناس الأخرى :**

و بمنطقة الشام و الجزيرة أجناس متعددة غير أنها لم تلعب دورا رئيسا كغيرها ، سنوجز الحديث عنها ، منها الروم في تل العقاب و الجسر و أنطاكية و مرعش و غيرها من مدن شمال الشام ، كما وجدت أقليات من الآراميين لاسيما في دياري مضر و ربيعة و في المناطق الشرقية لنهر دجلة على تخوم المناطق المأهولة بالأكراد و الأرمن ، كما وجدت أقليات يهودية – تشتغل بالتجارة – و بشكل أكثر في الإمارات الإسلامية حيث كانوا يسكنون أحياء خاصة بهم.

**6- الطوائف المذهبية :**

لم تكن الشام و الجزيرة متعددة الأجناس فحسب ، بل و متعددة الطوائف المذهبية أيضا سواء كانت إسلامية ( شيعة إسماعلية ، نصيرية أو دروز ) أو مسيحية ( يعاقبة ، نساطرة ، موارنة )أو يهودية ( سامرية )

**1- الطوائف الإسلامية :**

**أ- الشيعة الإسماعيلية :**

كان العالم الاسلامي قبيل قدوم الصليبيين مقسما إلى خلافتين عباسية سنية في بغداد ، و فاطمية شيعية في القاهرة ، و كانا متصارعين على مناطق النفوذ لمذهبهما ، و كانت بلاد الشام هي مسرح ذلك الصراع ، فسيطر الفاطميون على السواحل الشامية في القرن 4 هـ / 10 م و صحب ذلك انتشار المذهب الشيعي في شمال الشام لاسيما في حلب ، و مما لاشك فيه أن المذهب الشيعي دخل بلاد الشام قبل الفاطميين ، و حتى قبل مجيء الحمدانيين ، إنما منذ بدأ التشيع لسيدنا علي ين أبي طالب رضي الله عنه .

و كبر دور الشيع الإسماعيلية خلال القرن 6 هـ / 11 م و اتخذوا من حلب و ضواحيها مستقرا لهم ثم انتقلوا إلى قلعة بانياس التي لعبت دورا مهما في تاريخ حركتهم ، و كذلك عند تخوم دمشق و أنطاكية و حلب

في الجبال ( جبل السماق شمال شرق حلب ) ، و كانت لهم حصون فيما بين حماه و حمص ، و عند صفحة جبل لبنان.

و سموا بالإسماعيلية لقولهم بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق ( ت : 145 هـ / 762 م ) ثم بإمامة ابنه محمد من بعد وفاته ، و قد أطلق المؤرخون على هذه الحركة تسميات عديدة منها الحشاشين (ASSASSINS ) و هذه التسمية جاءت لما عرف عن هذه الطائفة من استعمالها للحشيش [1] ، إلا أن اصطلاح حشاشين الذي أطلقه الأوربيون على هذه الحركة لا يعني تحريفا لكلمة حشاشين ، بل إنه يعني في معظم اللغات بما فيها اللاتينية ( المغتال ) الذي يقتل الناس خلسة أو بالخيانة و يكون الضحية شخصية مرموقة.

و قد سموا بالباطنية [2] - كذلك – لإيمانهم بالإمام الغائب أي المستور ، ولأنهم أقاموا مبادئ مذهبهم بإيمانهم بأن لكل عقيدة ظاهرا و باطنا.

و بالرغم من هذه التسميات إلا أننا نعتمد تسميتهم بالإسماعيلية لأنه أقرب الأسماء لواقع الحركة التاريخي نسبة للإمام إسماعيل بن جعفر الصادق ، ولأن كلمة حشاشين مختلف في أمرها و هي تسمية أطلقت حديثا على الحركة ، و كذلك فالباطنية مصطلح يطلق على كل من يستخدم التأويل الباطني إسماعليا كان أم لم يكن.

**ب- النصيرية :**

من غلاة الشيعة الذين ألهوا علي بن أبي طالب ، و يرجع تسميتهم بالنصيرية لكونهم أتباع نصير غلام علي بن أبي طالب ، كما يرد اسمه في بعض المصادر ابن نصير ، و النصيرية من أقدم الشيعة الغلاة إذا صح نسبهم إلى نصير .

و للنصيرية ألقاب معروفة عند المسلمين فتارة يسمون الملاحدة و أخرى الإسماعيلية و تارة القرامطة و الباطنية و غيرها .

و النصيرية يزعمون أن السحاب سكن علي با أبي طالب و إذا مر عليهم قالوا : « السلام عليك يا أبا الحسن » و يقولون أن الرعد صوته و البرق ضحكته ، و هم من أجل ذلك يعظمون السحاب ، و يقولون بأن سلمان الفارسي رسول علي بن أبي طالب .

---

[1]- تسمية الحشاشين نقله الأوربيون عن ماركو بولو : الذي يحكي عن أن شيخ الجبل كان يعطي حشيشا للفداوية ثم ينقلهم إلى الجنة المزعومة حيث الخمر و الجواري الحسان حيث يعتقد الداخل أنه بالجنة و عندما يخرج منها يأمره شيخ الجبل بالاغتيال فيفعل دون تردد.

[2]- اختلف المؤرخون المسلمون حول مصطلح الباطنية حيث أطلقوا على أغلب فرق الشيعة اسم الباطنية ( الإسماعيلية ، القرامطة ، النصيرية و غيرهم).

أما تاريخ النصيرية في بلاد الشام ، فلهم وقائع مشهورة في معاداة الإسلام و المسلمين ، فمن المعلوم أن السواحل الشامية غنما استولى عليها الصليبيون من جهتهم ، و هم دائما عدو المسلمين ، و من أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار و فتح المسلمين ساحل الشام و قهر الصليبيين ، و من أعظم أعيادهم استيلاء الفرنجة على ثغور المسلمين : تعاونوا مع الصليبيين ضد نور الدين و صلاح الدين فاتفق المسلمون عليهم و طهروا البلاد منهم، كما أن النصيرية عاوناو و آزروا التتار في دخولهم بغداد و بلاد الشام.

كانت النصيرية من الطبقات المنبوذة في بلاد الشام خلال القرنين 5 ، 6 هـ / 11 ، 12 م إذ كانت من العناصر الخطرة بالنسبة لأمن البلاد بل و أمن المسلمين عامة ، لذلك فقد استعمل معهم العنف في معظم الأوقات ، و أمام هذا الوضع احتمى النصيرية بصفحات الجبال الرواسي في بلاد الشام لاسيما في جبل الأقرع الذي عرف فيما بعد باسمهم.

**جـ- الدروز :**

ينبثق مذهب الدروز أو الموحدين – كما يفضلون أن يسموا أنفسهم – من مذهب الإسماعيلية و من هنا فإنهما يلتقيان فيما بينهما في كثير من العقائد الإسلامية . و ينسبون إلى صاحب دعوتهم محمد بن إسماعيل الدرزي المعروف بنشتكين البخاري و هو اسم تركي و اصله من بخارى قدم مصر بين سنتي 407 – 408 هـ / 1017 – 1018 م على أيام الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله و اتصل به و حسن له فكرة الألوهية ، و قد وافق الحاكم بأمر الله على ذلك سرا و ترك له أمر إذاعة ذلك دون يورط نفسه علنا ، فلما أذاع الدرزي هذه الدعوة بالجامع الأزهر و ثار عليه الناس و قصدوا قتله أظهر الحاكم بأمر الله براءته و حماه إلى أن فر إلى وادي التيم بالشام حيث بث دعوته بين سكان الوادي الذين لقى استجابة منهم.

أخذ الدروز يبثون دعوتهم بين المسلمين الذين وفدوا عليهم في عقر دارهم بوادي التيم ، و في حوالي سنة 410 هـ / 1021 م غزوا جبل السماق شرق حلب و جاهروا بمذهبهم و خربوا البلاد و ما كان هناك من مساجد ، فقتل كثير منهم و من دعاتهم و أعيانهم و كان ذلك سنة 423 هـ / 1032 م .

ينقسم المجتمع الدرزي من الناحية الدينية إلى قسمين العقال او الأجاويد و الجهال ، أما العقال فلهم رئيسان دينيان يسمان بشيخي العقال ، و العقال هم المتمسكون بالقواعد السلوكية في المذهب بالامتناع عن شرب الخمر و التقشف ، و يميزون في الملبس عن الجهال بكونهم يتعممون بعمامة بيضاء اسطوانية ويلبسون القباء و العباءة و لونها أزرق غامق .

أما الجهال فسائر أبناء الطائفة الدرزية و يسمون أيضا الشراحين لأنه لا يسوغ لهم غير تلاوة بعض شروح الرسائل الدرزية دون الرسائل نفسها ، كما لا يسوغ لهم مطالعة القرآن [1].

و الخلاف بين العقال و الجهال هو عن الدرجة فحسب حيث يتشتد مع العقال أكثر مما يتشدد مع الجهال في تحصيل الفضائل و ممارستها .

و بالرغم من أن الدروز قد انطووا على أنفسهم في القرنين 5 ، 5 هـ / 11 ، 12 م في بلاد الشام خوفا من اضطهاد أهل السنة حتى أصبحوا جماعة قلة لا يعرف الناس عن أمرهم شيئا ، و بالرغم من هذا نراهم يعاونون المسلمين السنة في صراعهم مع الصليبيين معاونة صادقة في سبيل الاحتفاظ بالسهل الساحلي في لبنان ، فقد كانت لهم مواقف حربية رائعة في حصار قلعة الشقيف قرب صور ، على أن جماعة الدروز في بلاد الشام لم تتخذ موقفا واحدا حيال المسلمين بل كانت تلتزم بمبدأ المحافظة على كيانها بشتى الصور مما جعلها تناصر و تعاون من يساعدها على الاحتفاظ بهذا المبدأ[2].

**2- الطوائف المسيحية :**

**أ- الموارنة :**

هم طائفة من الكاثوليك[3] الشرقيين ، و من أهم فروع الكنيسة السورية القديمة و هم ينتسبون إلى القديس مارون و هو ناسك راهب متعبد متقشف لا يعرف عن حياته شيء ، و إذا كان القديس مارون هو الزعيم الروحي و المعلم الأول لهذه الطائفة ، فإن يوحنا مارون ( ت : 707 م ) هو الزعيم الدنيوي و مؤسس كيانها القومي[4] زادت قوتهم في العصر الأموي مما اضطر معاوية و من بعده عبد الملك بن مروان أن يدفع لهم إتاوة سنوية حتى يلتزموا جانب الحياد بينه و بين الدولة البيزنطية ، و منذ ذلك الوقت استكان الموارنة و مالوا إلى العزلة و أنشئوا ضربا من الفردية التي طالما تميز بها سكان الجبال[5] .

استقروا في جنوب لبنان و هناك قويت شوكتهم و زاد نفوذهم حتى بلغ عدد رجالهم الصالحين للقتال أيام الحروب الصليبية 40 ألف مقاتل ، كما استوطن فريق منهم قرب دمشق ، و مهما يكن من أمر عقيدة

---

[1]- للدروز قرآن يختلف عن الذي بين أيدينا و يطلقون على مصحفهم :« المصحف المنفرد بذاته » ، و يطلقون على السور العرف .

[2]- للدروز - حاليا –موقفين متناقضين من إسرائيل فهم جزء من المقاومة اللبنانية في لبنان ، كما أنهم جزء من الجيش الإسرائيلي في الجولان.

[3]- الكاثوليك : طائفة يعتقد المسيحيون أن مؤسسها المسيح عيسى (ع ) تحت سلطان الرسل و الأساقفة ، ترأسها من بعدهم القديس بطرس ، و هي تتفرع في وحدة الإيمان و السلطة إلى طوائف متباينة.

[4]- فيليب حتى ، تاريخ سوريا ، جـ 2 ، ص 140.

[5]- أحمد رمضان ، المجتمع الإسلامي ، ص 63.

الموارنة فإن الذي نريد أن ننبه إليه هو أن الموارنة كانوا طوال فترة الحروب الصليبية موضع اهتمام روما ، مما كان يشكل خطرا كبيرا على المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في ذلك الوقت[1].

و سبب تعاون الموارنة مع الصليبيين فكلاهما مسيحي كاثوليكي المذهب ، هذا فضلا عن عدائهم المشترك للمسلمين ، و من أمثلة ارتباط الموارنة بالصليبيين منذ بداية الحملة الصليبية الأولى أن العلاقة في ما بينهم قويت و التصقت حتى أن جماعة هؤلاء الموارنة تركت بلاد الشام و نزحت في ذيل الصليبيين إلى قبرص حوالي في نهاية القرن 7 هـ / 13 م فقد وجد الموارنة في الصليبيين قوة جديدة لا يمكن الاستغناء عنها ، فتكونت بينهما علاقة مصلحية و مصيرية ، كما أنه تم الزواج من الطرفين على عكس الطوائف المسيحية الأخرى التي رفض الصليبيون الارتباط بها.

**ب- الطوائف الأخرى :**

كان الروم الأرثوذكس[2] الأكثر عددا بين الطوائف المسيحية المختلفة ببلاد الشام ، بل أنهم كانوا اكثر بكثير من الصليبيين في كثير من مدن الشام ، و بخاصة مدينة أنطاكية التي كان معظم سكانها من أبناء الطائفة ، و المعروف أن أبناء هذه الأخيرة كانوا من أصل عربي و أنهم كانوا يفضلون الحكم الإسلامي على سيطرة الكاثوليك الغربيين ، و ذلك لأنه بدخول الصليبيين أنطاكية أخذت كنيستها و سلمت لأساقفة و رهبان كاثوليك لاتين ، على عكس الحكم الإسلامي الذي أبقى الروم الأرثوذكس في كنائسهم .

وكذلك شكل السريان [3] الأرثوذكس أكثرية عددية بالنسبة لغيرهم من الطوائف المسيحية المحلية في كل من طرابلس و جبيل و بيروت و عكا ، و أثناء الحكم الصليبي لهذه البلاد وجدت أعداد منهم في الرها و أنطاكية و بيت المقدس ، و بالمثل يمكن أن يقال عن طائفة النساطرة[4] ، و إن كانت لا تشكل أكثرية عددية من سكان المدن و البلاد التي خضعت للحكم الصليبي ، إلا أن أبنائها عاشوا في عداء صريح مع الصليبيين ، و كانوا غير متعاونين معهم منذ الاحتلال الصليبي لبلاد الشام ، و سبب ذلك يرجع إلى ما لمسوه من فارق كبير في معاملة المسلمين لهم و تحت حكمهم و ما تمتع به إخوانهم في المدن التي خضعت للحكم الإسلامي و بين معاملة الصليبيين لهم.

---

[1]- نفسه.

[2]- الأرثوذكس : هي الكنائس الشرقية البيزنطية التي انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكية على أيام ميخائيل سرولاريوس بطريريك القسطنطينية سنة 1054 م ، انتشرت في روسا و البلقان و اليونان و مختلف بلدان الشرق الأدنى.

[3]- السريان : جماعة انفصلت عن كنيسة أنطاكية على إثر المجادلات اللاهوتية حول طبيعة المسيح ، و بفضل أحد زعمائها يعقوب البردعي تأسست جماعة اليعاقبة في الجزيرة خلال القرن 6 م .

- طائفة مسيحية ينتسبون إلى البطريك نسطور – القسطنطينية – سكنوا بين الموصل و أرمينيا (كردستان ) و أغلبهم من النصارى [4]الأكراد.

كما أن المسلمين وجدوا المعاونة الصادقة من أهل الذمة مثل اليهود السامرية [1] لاسيما في نابلس الذين مدوا يد المساعدة للمسلمين أيام الحروب الصليبية ، بل إنهم احتسبوا موتاهم في هذه الحروب شهداء ، و من ثم أقاموا عليهم الأضرحة التي لا تزال تزار من قبل سكان نابلس المسلمين و السامريين على حد سواء .

و السامريون هم سكان السامرة أو سبسطية يخالفون اليهود في نقاط منها أنهم لا يقرون من كتب الوحي إلا أسفار موسى الخمسة المعروفة بالتوراة و يقومون بعبادتهم على جبل جرزيم جنوبي شكيم أو نابلس.

**الحملة الصليبية الأولى :**

**الحملة النظامية ( حملة الأمراء )**

لم تكن الحملة النظامية تحت قيادة أمير واحد ، بل تمثل فيها الإقطاع أتم تمثيل ، فكان لكل أمير أتباعه و رجاله و جنده ، و اختلفت أهواء هؤلاء الأمراء بعضهم عن بعض .

---

[1]- السامريون: ينسبون أنفسهم إلى سبط يوسف ، و يعزون انشقاقهم عن سائر أسباط إسرائيل إلى خلاف ديني نشأ بينهم و بين هذه الأسباط فلما دخل المسلمون فلسطين أخذ السامريون يدينون بالإسلام فقل عددهم رويدا رويدا إلى أن أصبحوا طائفة قليلة ، و قليل منهم يعرف العبرية ، و ينعت السامريون أنفسهم بالمحافظين لأنهم حافظوا و لازالوا يحافظون على أدق شعائر العبادات و الشريعة اليهودية دون تأويل و لا انحراف ، لعل أهم سبب الخلاف مع غيرهم هو مسألة القبلة فهم يعتبرون جبل جرزيم هو الجبل المقدس و المحل المختار.

و أول من هب لحمل الصليب – استجابة للبابا – كونت فيرماندو هيو الكبير أصغر أبناء هنري الأول و أخ فيليب الأول و أمه اسكندنافية ، غير أن صغر سنه دون إخوته ألقاه في مؤخرة أصحاب القوة فقنع عن كره بدوقية صغيرة ، و لعله رأى في الحرب الصليبية ما يشبع طمعه في القيام بدور بارز يؤهله لامتلاك رقعة ضخمة على حساب الشرق الإسلامي ، و كان إلى جانب هذا شديد الاعتزاز بأصله و أسرته و مكانتها ، يهمه قبل كل شيء مظاهر التفخيم و الاحتفاء [1].

و هماك شخصية أخرى و هو جود فري البويوني ( GOD FREY DE BOUILLON )الذي تولى قيادة الجيش الذي جمعه من اللورين و شمال فرنسا و الألمان ، و كان جود فري البويوني شديد الالتصاق بالفكرة المسيحية حتى ليبدو في تاريخ العصور الوسطى عامة أول « فارس مسيحي »، كان مؤمنا أشد الإيمان بوجوب استرداد بيت المقدس و طاعة أوامر البابا ، كما باع مقاطعته الواقعة على نهر الموز ، و رهن قلعة بويون عند أسقف ليون ليصرف من دخل ذلك كله على من معه من القوات ، هذا بالإضافة إلى المبلغ الذي تلقاه من اليهود حتى لا يتعرض لهم و هو في طريقه إلى بيت المقدس.

و تولى روبرت دوق نورماندي ( ROBERT DUKE OF NORMANDY ) قيادة الفرسان القادمين من غرب فرنسا و نورماندي و بعض مناطق الشمال ، فضلا عن الكثير من الفرسان الإنجليز ، أما الجيش الثالث فكان تحت قيادة ريموند الرابع كونت تولوز و ضم جيشه فرسان جنوب فرنسا ، و كان في صحبته الأسقف أدهمار المندوب البابوي في الحملة.أما اصغر الجيوش فكان جيش هيو كونت فرماندو – الذي سبق و أن تحدثنا عنه سابقا – وكان جيشه أول الجيوش الصليبية في الوصول إلى أراضي بيزنطة ، و ثمة جيش خامس قاده بوهيمند النورماندي و تألف من المقاتلين النورمان الأشداء في جنوب إيطاليا[2] .

و السؤال المطروح لماذا لم يخرج هؤلاء أولا ؟ ذلك أن البابوية و الفرسان كانوا منشغلين آنذاك بالاستعداد للخروج للحملة في موعدها المحدد من قبل و هو بعد جمع محاصيل السنة الزراعية ، و كانت مشكلة التموين هي أكبر المشكلات التي واجهها الأمراء و الفرسان في حملتهم ، و كان على كل منهم أن يبحث عن حل لهذه المشكلة بطريقته الخاصة ، و في أواخر صيف سنة 489 هـ / 1096 م كانت جيوش حملة الأمراء متأهبة للرحيل صوب فلسطين ، وسلكت هذه الحملة نفس المسلك عبر المجر للوصول إلى القسطنطينية حيث اجتمعوا إلى الإمبراطور البيزنطي ألكسوس كومنين و أقسم أغلبهم يمين الولاء للإمبراطور ، و اتفقوا على أن كل ما يستخلصونه من الأراضي الإسلامية يرجعونه للدولة البيزنطية.

---

[1]- حسن حبشي ، الحرب الصليبية الأولى ، ص 65.

[2]- يذكر المؤلف المجهول في (GESTA FROMCORUM) أن النورمان في جنوب إيطاليا لم يعرفوا بأمر دعوة البابا أوربان الثاني لشن حملة صليبية إلا في مرحلة متأخرة عندما وصلت جيوش الفرنج من فرنسا إلى إيطاليا في طريقها إلى بيت المقدس ، فسارع بوهيمند في الانضمام إليها.

**مسير الحملة من القسطنطينية**

غادرت القوات الصليبية القسطنطينية ميممة وجهها شطر آسيا الصغرى حيث كان لابد لها من أن تحتك احتكاكا حربيا بسلاجقة الروم في تلك النواحي التي تمر بها نحو وجهتها المنشودة ، و انضم إليهم بطرس الناسك و من بقي معه من جنود حملة الفقراء ، أما الإمبراطور البيزنطي فاعتذر عن المشاركة و عن قبول قيادة الحملة ، و لكنه زود الجيش الصليبي بعدد من الأدلاء و المرشدين ، و أرسل معهم بعض قواده ، كما ظل يرسل إليهم المؤن و الإمدادات عن طريق البر و البحر.

وصلت جيوش الحملة الصليبية الأولى في جمادى الأولى 490 هـ / 6 ماي 1097 م أمام مدينة نيقية التي كانت تتحكم في الطريق الأساسي عبر الأناضول ، فتم فرض حصار مشترك من القوات الصليبية و البيزنطية حول المدينة التي كان صاحبها قلج أرسلان غائبا عنها ، و لما عاد شن هجوما على المحاصرين في 21 ماي 1097 م إلا أنه فشل في ردهم عنها ، و في رجب 490 هـ / 19 جوان 1097 م استسلمت المدينة للمحاصرين البيزنطيين خوفا من وحشية الصليبين ، و كان النصر في نيقية حافزا للصليبيين على مواصلة الزحف جنوبا صوب فلسطين [1].

و عوض الإمبراطور قادة الصليبيين و جنودهم بالهدايا التي أغدقها عليهم بدلا من الغنائم و الأسلاب التي كانوا ينتظرون الحصول عليها عند استيلائهم على المدينة .

**معركة ضوريليوم شعبان 490 هـ / جويلية 1097 م**

كان أول اختبار للمؤسسة العسكرية الصليبية أمام المسلمين السلاجقة عند ضوريليوم DORYLEAUM[2] ، فبعد أن غادر الصليبيون نيقية انقسموا إلى رتلين ، كان اتجاه الأول جنوبي شرقي و فيه نورمان إيطاليا و فرنسا بقيادة بوهيمند و تنكريد و روبرت .

أما اتجاه الثاني فكان جنوبي غربي و فيه المندوب البابوي أدهمار و جود فري و ريموند ، و كان هذا التقسيم لتسهيل عملية التموين أثناء الزحف هذا من جهة ، و من جهة ثانية للقضاء على جيوب المقاومة السلجوقية في أكبر مساحة ممكنة [3].

و في ضوريليوم لم يتعجل لا السلاجقة و لا الصليبيين للمعركة ، إلا انه بينما بينما كان المشاة الصليبيون يقيمون معسكرهم بادر الفرسان الفرنجة بالهجوم ، إلا أن خفة الحركة و المراوغة و رماية النبال

---

[1]- قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص 123.
[2]- إسكي شهر .
[3]- سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ 1 ، ص 128.

التركية لم تكن مألوفة لديهم ، فاضطروا إلى التقهقر داخل كتلة الحجاج في ذهول تام [1]، و بالرغم من كل محاولات الفرسان الصليبيين الالتحام مع السلاجقة إلا أنهم لم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا ، كما و أن السلاجقة لم يستطيعوا بدورهم أن يحدثوا شيئا ما في صفوف الصليبيين الذين تكتلوا للدفاع ، و استمرت الحال هكذا لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات ، حتى قدم الرتل الثاني بقيادة جود فري و ريموند فاضطر السلاجقة للانسحاب[2].

و كان أول ما قام به الصليبيون هو تجنب الوقوع في طوق المسلمين ، و ضمان تسديد الضربة للكتلة الرئيسية من جيش العدو ، عندما يشرعون ( الصليبيون ) في هجومهم ، كما احتفظوا بجزء من القوة احتياطيا زيادة في الحذر لمقاتلة أية قوة من العدو تسعى للالتفاف حول الجانبين ، و لتقدم المساعدة إلى أي قطاع في خط القتال عندما يتعرض لضغط شديد[3] ، و يعزى إلى بوهيمند الفضل في إيجاد البدائل المعاكسة لطرائق المسلمين القتالية من غير دراسة سابقة ، و بفضل انضباط قواته و تنظيمها استطاعت أن تحدث المفاجئة.

و تعتبر ضوريليوم انتصار حظ لا غير ، ذلك لأن الصليبيين كانوا يستحقون الهزيمة ، لإهمالهم بحيث زحفوا في رتلين منفصلين ، و كان موضع الرتلين قريبين من بعضهما البعض ، إلا أنه في الحقيقة فإن نجدات جود فري قد استغرقت خمس ساعات لتصل بوهيمند بالرغم من المسافة التي كانت تفصلهما كانت لا تتجاوز السبعة أميال ( 14 كلم )، و من الواضح أن الجزء الأكبر من الوقت قد ضاع عندما كانت رسل بوهيمند تبحث عن جود فري ، حينما كان السلاجقة يهددون بالهجوم و يحاولون عبثا فصل الجناح الأيمن عن الرتل[4] ، و بناء على ما تقدم يمكننا أن نقرر بأن القسمين قد فقد الاتصال مع بعضهما البعض ، و راحا يتقدمان في اتجاه غير معروف يريدان الحفاظ على الجيش كي يصل سليما إلى بيت المقدس.

**المسير نحو أنطاكية** [5]

إن العقبات لم تنتهي عند ضوريليوم فمازال الطريق شاقا أمام الحملة الصليبية الأولى ، حيث تقف أنطاكية التي وصلتها قوات الحملة الصليبية الأولى في ذي الحجة 490 هـ / 21 نوفمبر 1097 م حيث

---

[1]- يقول المؤرخ اللاتيني FOULCHER CHARTER في ص 83 – 87 «أطلق الأتراك السهام كالمطر وسط سليل أسلحتهم و صياحهم و إ>ا أصابتنا السهام كدنا نموت ، بعد أن جرح الكثيرون ، لذنا بالفرار و لا غرابة في ذلك لأن هذا النوع من القتال مجهول لدينا »

[2]- سميل ، فن الحرب عند الصليبيين ، ص 253 ، C.OMAN,THE ART OF WAR,VOL1,p273

[3]- سميل ، المرجع السابق ، ص 254.

[4] C.OMAN, History of the war in the middle age,vol 1, pp 277 – 278

[5]- أنطاكية : تقع على مسافة 12 ميلا عن البحر فوق ضفاف نهر العاصي ، و تغطي منطقة ما بين 3 أميال طولا و ميلا واحدا عرضا بين نهر العاصي و الريف الجبلي الوعر من سورية في الجنوب ، كانت للسلاجقة منذ أن فتحها السلطان السلجوقي سليمان بن قتلمش سنة 477هـ / 1084 م أنظر :ENCY-OF ISLAM,VOL1art :Antiich,pp516-517

استغرق عبورها هضبة الاناضول أربعة شهور كاملة ، و كانت أنطاكية مدينة محصنة بوجود نهر العاصي عند جانبها ، و الأسوار المدعمة الشاقة على نحو فخم حتى جبل القيسان ، و حتى القلعة المنتصبة بشكل جليل على ارتفاع ألف قدم فوق السهل عند جانبها الآخر ، و كانت التحصينات في المدينة بشكل هائل إلى درجة بدا أنه من الجنون المغامرة بأرواح الصليبيين في مهمة يائسة للاستيلاء على هذا المكان[1].

**تكوين إمارة الرها:**

إذا كان اتجاه بوهيمند نحو أنطاكية يكتنفه الصعاب و المشاكل الكثيرة ، فإن بلدوين كان ينتظره الملك في الرها[2] دون جهد ، بعد أن جاءته دعوة من ملكا ثوروس الأرميني 491 هـ / 1098 م ، الذي لم يكن له وريث من بعده ، فاستدعى بلدوين ليتبناه و يورثه حكم الرها ، هذا من جهة ، و من جهة ثانية ليحمي إمارته من تهديد السلاجقة المتواصل ، الذين كانوا يحيطون بالرها إحاطة الخاتم بالمعصم ، و قد سارع ثوروس في دعوة بلدوين و الصليبيين لاسيما و أن كربوغا امير الموصل كان في طريقه إلى الرها سائرا لنجدة أنطاكية المحاصرة من قبل بوهيمند.

و بوصول بلدوين إلى الرها تبناه ثوروس في ربيع الأول 491 هـ / 1098 م ثم راح بلدوين يحرض الأرمن على ملكهم ثوروس حتى أغتيل هذا الأخير في ربيع الآخر 491 هـ / 9 مارس 1098 م و تولى بلدوين الإمارة معلنا بذلك قيام أول إمارة صليبية في المشرق[3].

و قد اتبع بلدوين في حكم الرها سياسة قامت على الربط بين الصليبيين الغربيين و الأرمن و تزوج منهم ، إلا أنه ظل متحيزا للغربيين فأغدق عليهم الأموال ، و أقطعهم الأراضي ، فاستولوا بذلك على المزارع و الضياع التي خارج أسوار المدينة ، و أقتيد الأرمن إلى العمل فيها ، مما أدى إلى استيائهم ، و قامت مؤامرة أرمينية ضد بلدوين لاغتياله في محرم 492 هـ / 26 ديسمبر 1098 م إلا أنه اكتشفها و نكل بالأرمن و هو ما عرف لدى المؤرخين بمذبحة ليلة الميلاد[4] .

الطريق إلى أنطاكية :

أما الآن و قد أسس بلدوين أول إمارة صليبية في الرها ، فإن بوهيمند و من معه مازالت تنتظرهم المتاعب في حصار أنطاكية ، فقد بدأ الحصار في ذي الحجة 490 هـ / نوفمبر 1097 م ، و استمر حتى

---

[1]- أنتوني بردج ، الحروب الصليبية ، ص 82.

[2]- الرها : حكمها البيزنطيون فيما بين 423 – 480 هـ / 1031 – 1087 م ، أما في عهد السلاجقة فقد منحها ملكشاه للأمير بوزان منذ أن أخذها من البيزنطيين عام 480 هـ / 1087 م ، إلا أن النزاع الذي دب في تلك الفترة بين الأمراء السلاجقة مكن ثوروس الأرميني من الوصول إلى حكم الرها عام 488 هـ / 1095 م حتى مجيء الصليبيين .

[3]- حسن حبشي ، الحرب الصليبية الأولى ، ص 104 – 105.

[4]- سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ 1 ، ص 148.

شعبان 491 هـ / جوان 1098 م خاض خلالها الصليبيون معركتين على مضض الأولى في صفر 491 هـ / 28 ديسمبر 1097 م ، و الثانية في ربيع الأول 492 هـ / 9 فيفري 1098 م[1]، و قد صنع الصليبين أبراجا في مواجهة أبراج المدينة ، و كان تكتيكهم يقضي بالتضييق على المدينة قصد الاستسلام ، و لم يكن لهم مناوشات مع المسلمين الأنطاكيين في بادئة الأمر[2] ، و طلب ياغي سيان أمير أنطاكية من المسلمين المساندة فسار إليه رضوان بن تتش أمير حلب و سقمان بن أرتق صاحب ديار بكر و أمير حماه ، فضلا عن قوات اخرى من حمص و من الأراتقة في الجزيرة ( ما بين النهرين ) و اجتمعوا في حارم على بعد 30 كلم عن أنطاكية إلى الشرق على الطريق إلى حلب ، و كانت خطة التحالف الإسلامي تقضي بأن تهاجم تلك الجيوش أنطاكية فجأة في الوقت الذي تخرج فيه جيوش ياغي سيان من المدينة لمهاجمة المحاصرين من الاتجاه المقابل كي يوقعوا الصليبيين ، إلا أن المسيحيين في حلب و حارم – و بخاصة السريان و الأرمن – علموا بتلك الخطة فراسلوا بوهيمند و ذلك في ربيع الآخر 491 هـ / فيفري 1098 م [3]، و نبعت مهمتان عسكريتان كان لابد للفرنجة تأديتهما ، فقد كان لابد من دحر جيش الميدان المعادي مع منع الحامية من شن إغارة مفاجئة للاتصال مع القوة القادمة لنجدتها او لتدمير معسكر الفرنجة ، وهكذا قرر بوهيمند أن يتولى الفرسان[4] ، الذين مازالت لديهم خيولا صالحة لملاقاة العدو المقترب ، بينما يبقى المشاة في المعسكر في حالة الجاهزية للتعامل مع أي هجوم مباغت من داخل المدينة[5].

استطاع بوهيمند أن يحبط خطة التحالف الإسلامي ، حيث كان تكتيكه بعد أن أوضح للجيش خطته – عاد إلى الخلف و معه بعض رجاله ليهاجموا الأتراك في عنف – و الواقع أن بوهيمند كان يتجه على مسافة يسيرة لحراسة خطوطه الخلفية ، لأن عادة الأتراك في القتال كانت على النحو التالي : حتى إذا كانوا أقل عددا كانوا يناضلون لكي يحيطوا بالجيش المعادي ، و قد حاولوا أن يفعلوا الشيء نفسه في هذه المعركة أيضا ، و لكن بعد نظر بوهيمند أحبط مساعي العدو[6] ، و يشهد شاع أعيان قائلا [7]: «وعندما قمنا باحتلال السهل كله ، ظل جزء من الأتراك خلفنا و هاجموا بعض جنودنا المشاة ، و لكن أولئك المشاة تمكنوا من صد الهجمة المعادية ببسالة و قوة ، و بينما كنا نتقدم من الجسر نحو الجبل ، واجهتنا صعوبة كبيرة بسبب رغبة العدو في الإحاطة بنا ، و عندما تقدم رجالنا على هذا النحو و اتخذوا التشكيل القتالي لاذ العدو بالفرار دون أن يعطينا فرصة للالتحام في القتال ».

---

[1]- نفسه ، جـ 1 ، ص 152 ، سميل ، فن الحرب عند الصليبيين ، ص 57.
[2]- ماكسيموس مونروند ، الحرب المقدسة ، ص 97.
[3]- سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق جـ 1 ، ص 157 – 158.
- خرج بوهيمند على رأس ( 700 ) فارس و اختار الصليبيون موقعا حصينا بين بحيرة العمق من ناحية مجرى العاصي من ناحية أخرى.[4]
[5]- سميل ن المرجع السابق ، ص 188 ، أنتوني بردج ، الحروب الصليبية ، ص 85.
[6] Raimoundi de Aguilers,R.H.C,pp 153-156

[7] IBID,PP 166-194

و استمر الحصار حول أنطاكية دون جدوى ، إلى أن خان فيروز الأرميني و هو أحد المسيحيين الأرمن من حراس أبراج القلعة و تحالف مع الصليبيين ففتح لهم البرج الذي كان يقيم عليه الحراسة فتدفقوا إلى داخل المدينة و ذلك في رجب 491 هـ / جوان 1098 م [1].

فلما بلغ الأمر إلى كربوغا أمير الموصل جمع جيشه و سار إلى مرج دابق و جاءه دقاق بن تتش صاحب دمشق و أتابكه طغتكين ، و جناح الدولة حسين صاحب حمص ، فسار كربوغا إلى حمص و ملكها ، ثم سار الجمع من الأمراء و القواد حتى نزلوا أنطاكية ، و انحصر الفرن جبها و عظم خوفهم من كربوغا حتى طلبوا منه أن يطلقهم فامتنع ، إلا أن كربوغا أساء السيرة في أصحابه و تكبر عليهم فساءت نياتهم [2].

و قد أحصة كل من المؤلف المجهول و فوشيه الشارتري جيش كربوغا بحوالي ( 300 ) ألف من الفرسان و المشاة ، « و كانوا في منعة من الرماح و القسي و سواها من الأسلحة للبسهم الحديد و جيادهم ، هذا إلى ما طبعوا عليه من الاقتصار في الحروب على حمل السيوف من بين مختلف الأسلحة »[3] ، « و كانوا يعرفون أن فرساننا يعانون من الضعف و أن مشاتنا لا حول و لا قوة لهم »[4].

و لم يشارك رضوان في الحلف لعداوته مع أخيه صاحب دمشق بحسب رأي الأستاذ سعيد عبد الفتاح عاشور [5]. إلا أن ذلك قد يكون سببا ظاهريا ، و أما ما خفي فهو أن كربوغا كان يطمح بنجدته لأنطاكية المحاصرة أن يمتلك حلب و يُكوّن جبهة قوية تضم شمال الشام و العراق ( الموصل – حلب ) ، و أنه إذا أتيح له تَملُّكَ أنطاكية فإن حلب ستصبح تحت رحمته دون شك ، فكان خوف رضوان من أن يحدث ما كان يفكر فيه كربوغا[6] هذا من ناحية ، و من ناحية أخرى كان رضوان يريد تفادي خطر الصليبيين – حالة انتصارهم – و ذلك بعد المشاركة في الحلف الإسلامي ، لأن إمارته حلب تقع بين الرها و أنطاكية الصليبيتين[7].

و لما كان الفرنجة لا يملكون أية مصادر تساعدهم على الصمود في وجه حصار طويل الأمد – حيث ساءت الأوضاع داخل المدينة إلى درجة أنهم أكلوا لحم الجيف - و ليس لديهم الأمل بوصول أية نجدات ، فقد وجدوا أن خوض القتال ضد القوات المتحالفة هي الطريق الوحيد الذي يمنحهم الأمل بالبقاء ، و كانت المعركة

---

[1]- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ جـ 10، ص 172 – 175 .

[2]- أبو الفدا ، المختصرجـ 2 ، ص 210 – 211 ، الحريري ، الإعلام و التبيين ، ص 9 ، الشيخ ، الجهاد المقدس ، ص 129 – 130 ، حامد غنيم ، الجبهة الإسلامية ، جـ 1 ، ص 71 – 72 ، كما اجتمع لكربوغا أرسلان تاش صاحب سنجار و سليمان بن أرتق صاحب ديار بكر ، و كان سيرهم من مرج دابق و عسكروا في السهل الممتد جنوبي أنطاكية عند باب البحر.

[3]- المؤلف المجهول ، أعمال الفرنجة ، ص 71 – 72 Gesta Francorum

[4] FOULCHER des CHARTERS ,p 98

[5]- سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق جـ 1 ، ص 162.

[6]- الشيخ ، الجهاد المقدس ، ص 162 .

[7] Réné Grouddet ,Hist des croisades,vol1,p 97

، فبادر بوهيمند في شعبان 492 هـ / جوان 1098 م إلى إشعال النار في المدينة كي تحرق المنازل و يجبر الصليبيين القابعين بداخلها على الخروج إلى المتاريس الأمامية للدفاع عن أسوار المدينة [1]، ثم غادرت كل القوة المقاتلة الصليبية أنطاكية من بوابة واحدة في ستة فرق ، ثم عبروا الجسر و انتشروا عبر السهول ليشكلوا خط هجوم في رتل واحد ، بينما كانت الكتلة الرئيسية للمسلمين عند الجانب الأيمن ، و تعرض الفرنج خلال انتشارهم لهجوم المسلمين و لكن كربوغا كان عازما على ترك القوة جميعها تغادر المدينة ، ثم يقضي عليها بكاملها [2]، و خلال دقائق بدأ القتال عند الجناح الأيمن للفرنجة قرب نهر العاصي ، ثم تم الاشتباك على طول الجبهة كلها ، و صب الفرسان الأتراك سهامهم على الصليبيين محاولين الالتفاف حولهم ، إلا أنهم فشلوا في تحقيق نتائج تذكر ، ذلك لأن مشاة الصليبيين قد قاموا بدورهم أمام الفرسان و غطوهم بتكتلهم و أسلحتهم من هجوم العدو حتى تهيأ هؤلاء ( فرسان الفرنج ) للكر و شن هجومهم الهام و الحاسم [3].

و كرر بوهيمند إجراءاته الوقائية ضد التطويق حاميا الجناحين بالموانع الطبيعية التي كانت في موقع المعركة ، و كانت لديه خطط جاهزة لمجابهة أية مفرزة سلجوقية قد تهاجم مؤخرته ، فاستغل الأرض المرتفعة التي كانت على بعد ميلين ، و أعطى أوامره للفرقة الثالثة لحظة خروجها من المدينة بالوصول إليها ، و بعد ان قامت بذلك أصبح جناح الفرنجة الأيسر محمي ، بينما كان جناحهم الأيمن مستندا إلى نهر العاصي [4]، و كان بوهيمند بمهارته يتولى حراسة مؤخرة الجيش [5] و كانت الخطة ناجحة بحيث كان باستطاعة الصليبيين منذ البدء الاشتباك مع المسلمين بالالتحام ، ففي البدء تزعزعت قوة ( 700 ) فارس الصليبيين أمام هجوم الكتلة الرئيسة للسلاجقة ، إلا أن بوهيمند أسرع بإرسال العون لهم من حرس المؤخرة ، أنهى هجوم الفرنج القتال في شعبان 492 هـ / 28 جوان 1098 م لصالحهم [6] ، و برهن المشاة الصليبيون على قدرتهم الجيدة في الدفاع عن أنفسهم في هذه المواجهة ، و تحت حماية مؤخرتهم على هذا النحو أصبح في مقدور الفرق الأخرى المتقدمة من القوات الصليبية شن الهجوم على نسق واحد ، أما السلاجقة فقد انهارت معنوياتهم بسبب فرار كثير من التركمانية ، و الخلاف بين قادتهم ، فبادروا إلى الانسحاب دون مقاومة – قوية – في وجه العدو الصليبي [7]، بعد الهزيمة التي تلقاها المسلمون طاردهم الصليبيون و معهم الأرمن و السريان [8] ، و بذلك

---

[1] - سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق جـ 1 ، ص ، 163.
[2]- سميل ، المرجع السابق ، ص 257 ، أنطوني بردج ، المرجع السابق ، ص 92 ، الشيخ ، المرجع السابق ، ص 119.
[3]- سميل ، ص 190 ، أنطوني بردج ، ص 93.
[4]- سميل ، ص 255 – 256 .
[5] FOULCHER des CHARTERS ,p 107
[6] - سميل ، المرجع السابق ، ص 256 – 257 .
[7] C.OMAN, History of the war in the middle age,vol 1, pp 285 – 286
[8]- سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق جـ 1 ، ص ، 165.

الانتصار الصليبي و السيطرة على أنطاكية و شمال بلاد الشام تحرر الصليبيون و لمدة عشر (10 ) سنوات من التعرض لأي هجوم عسكري من المستوى الذي قاده كربوغا[1].

كان كربوغا قد خسر المعركة قبل شعبان 492 هـ / جوان 1098 م عندما أضاع ثلاثة أسابيع قبالة مدينة الرها ، التي كان يحكمها بلدوين آنذاك ، و لكنه ( كربوغا ) حين فشل في تحقيق شيء أسرع حيث الخطر صوب أنطاكية لكي ينقذ الأمير ياغي سيان [2] ، و مقاومة بلدوين لكربوغا في الرها هي التي أنقذت الصليبيين أمام أنطاكيا دون شك.

و بإجراءات الحيطة المتقنة بشدة التي اتخذها بوهيمند ضد التطويف تمكن من مقاومة الهجوم السلجوقي المتميز بالقدرة على التحرك و خفة الحركة التي كان يقوم بها الرماة من الفرسان السلاجقة ، و لشدة حرصه قاد بوهيمند بنفسه كردوس المؤخرة ، الذي خصص ليكون احتياطيا ، و حراسة مؤخرة الجيش في آن واحد ، و عهد للفرسان و المشاة بمهام مختلفة ، إذ عهد للمشاة بحراسة المعسكر بينما أرسل الفرسان – فقط – لملاقاة القوات القادمة للنجدة ، ثم إنه أفلح في اختيار مكان المعركة الذي كان على أميال قليلة من أنطاكية عند نقطة يصبح فيها نهر العاصي على بعد ميل أو أقل من البحيرة ، و ذلك رغبة في منع التعاون بين الحامية ( الموجودة حتى ذلك الوقت بالقلعة داخل أنطاكية ) و القوة القادمة لنجدتها ، ولحماية الجناحين من أية محاولة إسلامية لتطويق جيش الصليبيين ، و مستفيدا بذلك من الموانع الطبيعية التي يضمنها نهر العاصي و البحيرة[3].

ثم تابع بوهيمند أعمال الغزو لأراضي شرق نهر العاصي ، و بدأ يهدد حلب منذ عام 493 هـ / 1100 م ، و خضع هذا التوسع السريع لاختيارين ، أولهما وقوع بوهيمند في الأسر[4] من العام 493 - 496 هـ / 1100 - 1103م ، و ثانيهما الهزيمة التي لحقت بحملة مشتركة للرها و أنطاكية في حران ، و كان حريا بالنصر أن يمنح الصليبيين نقطة انطلاق نحو استثمارات جديدة على محور وادي الخابور – و الرقة – الفرات [5].

**المسير إلى بيت المقدس**

---

[1] - سميل ، المرجع السابق ، ص 258.
[2] FOULCHER des CHARTERS ,pp 98-107
[3]- سميل ، المرجع السابق ، ص 255 – 256 .
[4]- كان أسر بوهيمند في ملطية عندما حاول مساعدة جبريل الأرميني ضد سلاجقة الروم ، فقد كان يهدف من وراء ذلك إلى التوسع شمالا لدفع الخطر البيزنطي و إلى الشرق لدفع الخطر الإسلامي ، و تقدم بوهيمند في 300 فارس و معه الأرمن ، و لكنه انهزم أما الأمير غازي بن الدانشمند أمير سواس و ذلك في رمضان – شوال 493 هـ / جويلبة – أوت 1100 م و اطلق سراحه من قبل الأرمن في ملطية .
[5]- سميل ، المرجع السابق ، ص 260.

كانت في شمال الشام الأسر العربية الحاكمة ترتقب انهيار السلاجقة في سرور ، و لم يتدخل أحد لإنقاذ أنطاكية ، و يذكر ابن الأثير [1] ما نصه « و كان الفرنج قد كاتبوا صاحب حلب و صاحب دمشق بأننا لا نقصد غير البلاد التي كانت بيد الروم لا نطلب سواها ، مكرا منهم و خديعة حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية »، و إذا كان رضوان و دقاق و هما من السلاجقة – قد اتخذا هذا الموقف فإن موقف الأمراء العرب يصبح واضحا.

كانت تلك هي الحال قبل أن يواصل الصليبيون زحفهم نحو بيت المقدس ، و يبدو أنهم استطابوا العيش في بلاد الشام و أنطاكية فركنوا إلى الدعة فترة من الوقت ، و ثارت بين العامة في بلاد الشام و أنطاكية مشاعر الإحباط عندما رأوا الزعماء يختلقون الأعذار لتأجيل الزحف صوب بيت المقدس ، هدف هذه الرحلة النهائي.

و هدد العامة بعزل ريمون السنجيلي و إحراق أنطاكية ، و هنا تذكر القادة هدف رحلتهم ، و بعد مرور تسعة أشهر لو يزيد تحركت جموعهم صوب مدينة القدس و كان ذلك في شهر ربيع الأول 492 هـ / جانفي 1099 م [2].

تحرك ريمون السنجيلي من معرة النعمان على رأس قواته و هو حافي القدمين و قد ارتدى ملابس الحجاج ، و تحرك جيشه جنوبا بحذاء منحدرات جبل النصيرية و تم زحفه دون مشاكل لأن الأمراء المحليين كانوا غاية في الضعف و التشرذم لدرجة أن معظمهم كانوا على استعداد لأن يقدموا الأموال و الهدايا تحاشيا لهجوم الصليبيين عليهم ، و بعد ما حدث في أنطاكيا قرر امراء دمشق و حلب و الموصل اتخاذ موقف المراقب السلبي.

و جنوب طرابلس اتخذ الصليبيون  الطريق الساحلي ، ثم انضم جود فري و تنكريد و بوهيمند إلى الجيش الزاحف جنوبا ، ثم تركهم بوهيمند و عاد إلى أنطاكية حاكما بلا منازع ، و قد استولى الصليبيون في طريقهم على بلاد صغيرة إلى أن وصلوا إلى نهر الكلب[3] ، الذي يمثل الحد الفاصل بين الفاطميين و السلاجقة ، و توغل الصليبيون في الأراضي الفاطمية و أخيرا صافحت القدس عيون الصليبيين.

كان الفصل الأخير في الحملة الصليبية الأولى هو الحصار الذي فرضوه على المدينة على مدى خمسة أسابيع رجب – شعبان 492 هـ / من 7  جوان إلى 15 جويلية 10 99 م  و في يوم الجمعة 22 شعبان 492 هـ / 15 جويلية 1099 م تمكن الصليبيون من اقتحام المدينة ، و لم ينج من سكانها سوى قائد الحامية الفاطمية

---

[1]- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ جـ 8، ص 189.

[2]- قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص 128

[3]- يسمى في المصادر الأوروبية PAS de chien

( أفتخار الدولة ) و عدد من رجاله ، و أعقبت ذلك مذبحة فظيعة ، و أبيحت المدينة للسحب و النهب و القتل عدة أيام و فاض الدم ، و ظلت الجثث مطروحة بشوارع القدس عدة أيام ، و عندما خفت شهوة القتل لدى الصليبيين كانت أولى المهمات التي واجهتهم هي مواراة الجثث التي فاحت منها الروائح النتنة في كل أنحاء المدينة أو التخلص منها بطريقة ما[1]، فمن الواضح أن الصليبيين عندما تركوا أوروبا لم يفكروا في الطريقة التي سيحكمون بها القدس حالة سقوطها ، كما أن البابا أوربان الثاني مات قبل أن يعلم بخبر السيطرة على بيت المقدس و لم يحدد لهم نظام الحكم في المدينة المقدسة ، فاجتمع القساوسة و قواد الحملة و انتهوا إلى اختيار جود فري البويوني حاكما لبيت المقدس تحت لقب « حامي الضريح المقدس »[2].

و في رمضان 492 هـ / 12 أوت 1099 م كان الأفضل بن بدر الجمال أمير الجيوش الفاطمية قد جاء بجيشه لمهاجمة الصليبيين ، و لكنه فضل الانتظار قرب عسقلان حتى قدم الأسطول ، و لكن القادة الصليبيين فاجئوه قرب عسقلان بعد أن بعد أن اتحدت جهودهم مرة أخرى و أخيرة ، و أخذ الفاطميون على غرة و هزموا ، ثم عاد الأفضل إلى مصر ، وبهذه المعركة تم تأمين الوجود الصليبي في بيت المقدس إلى حين ، و هكذا أسفرت الحملة الأولى عن قيام مملكة و إمارتين ، الرها و أنطاكية ، ثم ما لبث الكونت ريمون السنجيلي أن أسس إمارة أخرى في طرابلس سنة 502 هـ / 1109 م.

و هكذا نتيجة هذا النصر الذي أحرزته الحملة الصليبية الأولى تأسست إمارتان و دولة صغيرة لم تلبث أن تحولت إلى مملكة ، ففي رمضان 493 هـ / 18 جويلية 1100 مات جود فري ، و تم استدعاء بلدوين من إمارة الرها ليتولى حكم بيت المقدس ، و في صفر 494 هـ / 25 ديسمبر 1101م تم تتويجه و هكذا قامت مملكة بيت المقدس الصليبية[3].

كانت المملكة في ذلك حين تتكون من مدينة القدس و يافا و اللد و الرملة و بيت لحم و الخليل ، كما كان لها ظهير ريفي تسكنه أغلبية من المسلمين الذين رفضوا التعاون مع الصليبيين.

و على الرغم من رحيل بعض كبار القادة الصليبيين إلى أوروبا مثل روبرت دوق الفلاندرز و روبرت النورماني إلا أن العدد الأكبر من القادة ظلوا في المنطقة حيث كان عليهم أن يقوموا بمهمات الإدارة ، و لأنهم أقل كثيرا في عددهم من المسلمين فقد حاولوا قدر المستطاع أن يشجعوا الهجرة من أوروبا إلى فلسطين لتدعيمهم ، و من ناحية أخرى كانت أخبار النجاح الذي أحرزته الحملة الصليبية الأولى قد شجعت عناصر أوروبية جديدة على القدوم إلى المشرق رغبة في الحصول على نصيب من الغنائم التي شاعت اخبارها في الغرب الأوروبي مع العائدين من فلسطين.

---

[1] FOULCHER des CHARTERS ,pp 115-118,Raymand d'Aguielers,pp195-218,Gesta Francorum,p84

[2] FOULCHER des CHARTERS ,pp 124-125,William de Tyre,T1,p 309

[3]- قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية ، ص 130

و قد أورد « FOULCHER des CHARTERS » المصدر الأساسي لعمليات الاستيطان الصليبية الأولى حقيقة النقص البشري إذ قال [1] « و في بداية حكم بلدوين كان يمتلك مدنا قليلة و يحكم شعبا صغيرا ... و لهذا السبب بقيت ارض بيت المقدس فقيرة في السكان و لم يكن هناك من الناس ما يكفي للدفاع عنها ضد المسلمين إذا فكروا في الهجوم علينا » .

[1] FOULCHER des CHARTERS ,pp 148-149